أبو القاسم محمد كرّو

عصر القيروان

عصر القيروان

دمشق ــ أوتوستراد المزة
هاتف
٢٤٤١٢٦ ــ ٢٤٣٩٥١ ــ ٢١٣٨٢١
تلكس: ٤١٢٠٥٠
ص.ب: ١٦٠٣٥
العنوان البرقي
طلاسدار
TLASDAR

ريع الدار مخصص
لصالح مدارس أبناء الشهداء في القطر العربي السوري

الطبعة الأولى تونس 1973

الطبعة الثانية دمشق 1989

مقدمة

لم يلمع في تاريخ المغرب العربي اسم مدينة من مدنه ولا ازدهر عصر من عصوره بعد الفتح الاسلامي كما لمع اسم مدينة القيروان وازدهر عصرها الذهبي مدة اربعة قرون كاملة ، ابتداءً من تاسيسها على يد عقبة بن نافع سنة خمسين للهجرة وانتهت بانهيارها السياسي والعلمي والاجتماعي على ايدي القبائل الزاحفة من صعيد مصر عام 444 هـ وهي القبائل التي ارسلها الخليفة الفاطمي لتنتقم له من الصنهاجيين الذين قطعوا جميع الروابط السياسية والدينية التي كانت تربطهم بدولة الفاطميين .

وحضارة القيروان التي وضع اسسها واحكم دعائمها امراء الدولة الاغلبية ودعم كيانها واحسن رعايتها خلفاء الدولة الفاطمية ، وبلغت شاوها في التقدم والازدهار على ايدي الامراء الصنهاجيين ، حضارة القيروان هذه قد اقترنت في عصورها المختلفة بسلسلة لامعة من الاسماء الكبيرة الشهيرة التي اضاءت آفاقها الادبية والعلمية والسياسية والعسكرية فكانت امجادا من القوة تتحرك على الارض ، ارض افريقيا وآسيا واوروبا ، وكانت هداية روحية واشعاعا فكريا لعديد الاجيال والشعوب العربية والاسلامية ، وكانت نفوذا وسلطانا باسطا جناحيه على البحر المتوسط وما وراء سواحله من الشعوب والاقطار .

وقد تميز كل عصر من عصور حضارة القيروان بعدد من الاسماء البارزة التي طبعت عصرها بطابع شخصيتها وميزته عما سواه بما تميزت به عن المعاصرين لها في السياسة او الدين او العلم او الادب او غيرها من حقول الحياة والفكر والعلم .

وكلنا يذكر اسم المعز لدين الله الفاطمي كالمع اسم ازدهر به عصر القيروان في عهد الفاطميين .

وكلنا يذكر اسم المعز بن باديس الصنهاجي كابهى واكبر رمز لما بلغته القيروان من حضارة في عصر الصنهاجيين .

وكلنا يذكر ان كلا الاميرين قد اقترن عصره واسمه بامجاد شامخة في كل الميادين ، وان كلا منهما قد تميز عصره بطابع خاص في السياسة والثقافة ؛ فكان عصرهما عصرا يمكن وصفه بانه عصر المعز الفاطمي او عصر المعز الصنهاجي ، كما يقال مثلا في تاريخ اوروبا الحديث عصر لويس الرابع عشر وعصر نابليون ، وذلك لما كان لكل من هذه الاسماء من تاثير شخصي مباشر في حياة وافكار معاصريهم وشعوبهم .

ولئن كتبت عشرات بل مئات الكتب عن لويس الرابع عشر وعصره وعن حياة نابليون واعماله واثره في الحياة الاوروبية فان عصر القيروان عامة ، وما تميز به كل عهد من عهود حضارتها لم يكتب عنه حتى الآن سوى عدد يسير جدا من الكتب الجانبية التي عالجت نواحي متفرقة من حضارة القيروان ورجالها البارزين ؛ فليس يوجد حتى الان اى كتاب جامع عن حضارة القيروان ولا اى كتاب خاص بشخصية من شخصياتها الكبيرة اللامعة ٠

وباستثناء عدد قليل من المقالات او الرسائل الصغيرة التي كتب اكثرها منذ اكثر من عشرين سنة خلت فاننا لا نكاد نعثر على شيء يذكر في هذا الميدان (1)

وهذا الفراغ الادبي والفكرى الذى يكتنف امجد عهد في تاريخ افريقية العربية ، هو الحافز الاول لنا على اخراج هذه الدراسة عن جانب من جوانب الحياة الثقافية لعصر القيروان الذهبي ٠

وانها لبداية جديدة نحو عمل متواصل نرجو ان نوفق الى القيام بجهد منه ، وان يقوم غيرنا بما يسطاع في هذا الميدان ٠٠

والمهم دائما ان نبدأ السير ، وان نواصله فردا بعد فرد ، وجيلا بعد جيل ، فهذه هي سنة التقدم وسبيل الاحياء والانبعاث ٠

وحسبنا ان نسهم بقسط ضئيل في توعية الاجيال الصاعدة نحو ادراك ماضيها المجيد ، وتراثها الخالد حتى تجدد حضارة الماضي وثقافة الاجداد بحضارة اشمخ وثقافة ازهى واعمق ٠

اننا في هذا الكتاب لم نتجاوز الناحية الادبية ، الا حيث يقتضي البحث ان نلم بجوانب اخرى لاتمام الصورة ، وتكميل الاطار التاريخي ٠

وقد اضفنا للدراسة في قسمها الثاني نماذج من افذاذ ادباء القيروان الذين تركوا دويا ما زال صداه يتردد في انحاء العالم العربي رغم مرور الف عام على تاريخهم ، وهم ابن هانيء ، متنبي المغرب ، وابو اسحاق الحصري صاحب زهر الآداب وابن رشيق صاحب العمدة ، وابن شرف صاحب رسائل الانتقاد ٠٠ وحسبك هؤلاء برهانا على ما كان للقيروان من مجد ادبي سامق ومن حضارة راسخة كانت مشعلا لامم واقطار متعددة طيلة اربعة قرون كاملة ٠

واننا نرجو ان نكون قد احسنا اختيار الموضوع وعرضه ، قبل ان نكون محسنين في اى ناحية اخرى منه ٠

ابو القاسم محمد كرو

تونس 15 / 8 / 1973

---

(1) انظر هذه الرسائل في باب المراجع ، ومن أهمها كتب ح٠ ح٠ عبد الوهاب والميمني ٠

القسم الأول

عصر القيروان

١ - المغرب والاسلام

أ - بلاد المغرب :

كان العرب المسلمون عندما فتحوا بلاد المغرب العربي يقسمون هذه البلاد الى ثلاثة اقطار هي :

١ — المغرب الأدنى : ويطلقون عليه احياناً كثيرة اسم افريقية وهو يشمل القطر التونسي بكامله وجزءاً من الجزائر واقليم طرابلس الغرب بما في ذلك ولاية برقة على حدود مصر الغربية .

٢ — المغرب الاوسط: ويشمل ما يعرف اليوم باسم القطر الجزائري باستثناء بعض المناطق على حدود تونس الغربية .

٣ — المغرب الاقصى : ويشمل القطر المراكشي في حدود تقرب مما هو عليه اليوم .

ومن الواضح ان الحدود بين هذه الاقطار الثلاثة لم تكن مدققة حتى في عصر ملوك الطوائف في هذه البلاد وبالأحرى أنها لم تكن موجودة في عهود اتحادها

مع بعضها تحت حكم دولة من دولها القوية ، كالموحدين والفـــاطميين ، وكذلك الحال عندما كانت تابعة للخلافة الاموية في دمشق ثم للخلافة العبـاسية في بغداد الى عهد الخليفة هارون الرشيد ، الذي منح الاستقلال الداخلي لهذه البلاد تحت حكم ابراهيم بن الاغلب ، وكان هذا قد عرض على الخليفــة ان يتولى حكم امارة افريقية مقابل اسقاط « المائة الف دينار التي كان يأخذها امير افريقية من امير مصر ، اعانة على المصالح ، وان يدفع للخليفة اربعين الف دينار في كل سنة[1]».

وبالطبع فان هناك اسباباً حملت الخليفة على هذا الاجراء؛ منها وجود دولة اموية منافسة في الاندلس ، ومنها بعد هذه البلاد عن مركز الخـلافة . ويظهر ان احوال البلاد المغربية الاقتصادية في هذا العصر بالذات قد صارت جيدة لان الخلافة كانت تساعد افريقية باعانة مالية سنوية ، وليس كذلك الحال في اقاليم الخلافة الاخرى ، اذ كانت هي التي تدفع للخلافة اموالاً سنوية [2] .

ب — من هم البربر؟

عنــدما دخل العرب المسلمون الى بلاد المغرب ، اخذوا كلمة بربر عن حكام البلاد السابقين ، وهم الرومان الشرقيون ، واطلقوها على سكان البـلاد الاصليين فبقيت شائعة عنهم الى اليوم . واصل الكلمة يوناني ، اذ كان اليونان يطلقونها في اول الامر على كل من ليس بيوناني كما كان العرب يطلقون كلمة اعجمي على كل من ليس عربياً ، واخذ الرومان هــــذه الكلمة عن اليونان بنفس المعنى ولكنهم لم يطلقوها على اليونان ، ثم اخذت الكلمة تضيق حتى انحصرت شيئاً فشيئاً في شعب

(١) تاريخ ابن ابي الضياف .

(٢) كان هذا قبل عهد الاغالبة ، ويحتمل كثيراً ان العباسيين ارادوا به المحافظة على ولاء الامراء لهم . لأن الحياة الاقتصادية بافريقية قد ازدهرت أيما ازدهار من منتصف القرن الثاني ، وزاد ازدهارها بعد استقرار حكم الأغالبة .

شمال افريقيا في عهد الرومان[1] .

والبربر هم اقدم الجماعات البشرية المعروفة التي استوطنت شمال افريقيا منذ عصور عريقة في التاريخ . ولم يتفق الباحثون والمؤرخون على اصل البربر : من هم ومن أين أتوا ؟. وان كان المرجح اليوم بل المؤكد عند العلمـاء الثقاة انهم من آسيا ، ومن اصل قد يكون عربياً نزح في هجرات متتـالية الى بلاد المغرب العربي .

وقد لا يستبعد ان يكون البربر فرعاً من العرب البائدة ، التي لا يعرف عنها شيء كثير في التاريخ ، كما يحتمل ان يكونوا من عرب اليمن وجنوب شبه جزيرة العرب ، الذين تدفقوا بعد انهيار سد مأرب ، وكانوا يرتادون الآفاق البعيـدة حتى قبل انهيار السد .

ومهما تكن اتجاهات البحث ونتائجه: فان من المفيد هنا ان نستضيء بآراء بعض الباحثين والمؤرخين القدماء والمعاصرين عرباً وأجانب لنتبين من خلالهـا بعض معالم الحقيقة حول البربر أجدادنا الاولين :

اما المسعودي فذكر انهم من غسان ، وغيره يقول انهم من لخم وجـذام . وقال الطبري انهم اخلاط من كنعان والعماليق .. وقال آخرون انهم يمنيون .. وقيل انهم من ولد حام بن نوح ، ويقول نسابو البربر انهم من مضر وانهم كانوا يسكنون الشام ويجاورون العرب في المساكن ، ويشاركونهم في المياه والمراعي والمسارح ويصهرون اليهم ، ثم رحلوا الى مواضعهم التي استقروا بهـا اخيراً . وقد فند ابن خلدون كل هذه الاقوال ما عدا الرأي القائل انهم من ولد (كنعان ابن حام بن نوح).

ويرجح ابن خلدون ان ادعـاء نسابي البربر كاذب . قال : « والحق الذي

---

(١) تاريخ العرب ـ المطول ـ ج ٢ ص ٨٣٧ .

تشهد به المواطن والعجمة انهم بمعزل عن العرب الا ما تزعمه نسابة البربر من صنهاجة ولواتة » .

وعندما نكب العرب في الاندلس ، وبدأ جلاؤهم عنها الى اقطار المغرب ، ذكر ابن خلدون ان البربر لم يتأثروا بتقدم العرب الوافدين من الاندلس، ويعلل ذلك بتعليل ليس في صالح البربر ، كما انه يعطينا دليلاً على ان ابن خلدون ليس متعصباً للبربر[1] وان ما قاله فيهم ليس احسن مما قاله في الاعراب ان لم يكن أسوأ منه . قال ابن خلدون :

« وألقت الاندلس بأفلاذ كبدها من اهل تلك المملكة (يريد المملكة العربية) بالجلاء الى افريقية ، ولم يلبثوا ان انقرضوا ، وانقطع سند تعليمهم في هذه الصناعة (يقصد العربية) لعسر قبول اهل العدوة لها ، وصعوبتها عليهم، وعوج ألسنتهم ورسوخهم في العجمة البربرية [2] » .

اما المؤرخ الفرنسي قوستاف لوبون فانه قد ذكر رأياً متزناً تبدو عليه سمة البحث العلمي النزيه ، وذلك بعد ان أشار الى ان البربر قد تدفقوا في هجرات قديمة الى بلاد المغرب وقال عن موطن البربر الاصلي والطريق التي سلكوها الى هذه البلاد ، ما نصه :

« ويمكننا ان نأتي بافتراضات معقولة عن الامكنة التي صدرت عنها تلك الهجرة فنقول : ان اولئك المهاجرين لم يأتوا من الجنوب[3] الذي لا يرى فيه غير الزنوج ، ولا من الشمال الذي لم يكن الا بحراً خضماً لم يفكر الاقدمون في عبوره ، وانما جاء اولئك المهاجرون من الشرق ، أي من آسيا ، مارين من

---

(١) راجع : العرب وابن خلدون .

(٢) تاريخ ابن خلدون ج ٣ ص ١٧٢ .

(٣) يقصد الصحراء .

الارض الضيقة التي تصلها بأفريقيا[١] او جـاءوا من الغرب اي من مضيق جبل طارق .

والحق ان المهاجرين السود الشعور أتوا من شواطىء الفرات[٢] ومن شمـال بلاد العرب ، او من مكان ابعد منها على ما يحتمل، وان المهاجرين الشقر الشعور الزرق العيون أتوا من شمال اوروبا ، ولا ريب في مجيء هؤلاء من شمـال اوروبا مارين على الارجح من اقصى طرف غربي بافريقيا بدليل مـا بين آثارهم الحجرية في افريقيا ومـا بين الآثار الحجرية التي اكتشفت في شمـال اوروبا من المطابقة[٣] » .

ويقول المؤرخ التونسي الاستاذ عثمان الكعاك ما نصه :

« ومعظم الباحثين يذهبون الى ان البربر من أصل سامي اي من ابنـاء سام ابن نوح .. فقد كانت الجزيرة العربية موطن الساميين مغشاة بالثلوج في شمالهـا فكانت اليمن بلاد اليمن والخير هي مهد ابنـاء سام الاولين مختلطين مع اولاد أعمامهم ابناء حام ، فلما انحسرت الثلوج اشتدت الحرارة وقحلت البلاد وتفرق سكانها فانتقل الفرع السامي الحامي من البربر والنوبة والحبشة وقدماء المصريين الى افريقيا واستوطنوها ، فانفرد البربر بشمال افريقيا والحبشة بافريقيا الشرقية والسودان بافريقيا الشرقية والوسطى وهـذا ما ذهب اليـه العرب وهو مشهور المذهب عند الاوروبيين اليوم سيما علماء الالمان[٤] » .

ج – الفتح الاسلامي :

يذكر المؤرخون ان اول دخول العرب المسلمين لبلاد المغرب كان سنـة ٢٦

---

(١) اي منطقة قنال السويس اليوم .
(٢) يتفق هذا مع ما ذكره ابن خلدون .
(٣) حضارة العرب ص ٣٠٢ .
(٤) البربر ص ٦٥

الفتح الاسلامي

يذكر المؤرخون ان أول دخول العرب المسلمين لبلاد المغرب كان سنة ٢٦

ـ الهجرة على يد عبدالله بن ابي سرح في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، ولكن هذه الغزوة لم تكن سوى استطلاع وتعرف لأحوال البلاد وطرقها . امـا الفتح الحقيقي فقد بدأ على يد عقبة بن نافع سنة خمسين الذي واصل زحفه الى آخر شبر من الارض المغربية حتى دخل بفرسه في مياه المحيط الاطلسي ، وقال كلمته المشهورة[1] وأسس عقبة مدينة القيروان التي اصبحت اول مركز للثقافة العربية والدين الاسلامي في بلاد المغرب .

وبالرغم مما تذكره كتب التاريخ من ان العرب قد وجدوا مقاومة عنيفة وصعوبات شديدة اثناء فتحهم للبلاد ونشرهم للاسلام[2] فان البلاد المغربية قد تفتحت نفوس ابنائها وعقولهم في زمن مبكر للاسلام واللغة العربية . وهذا ما يفسر لنا كيف كان المغاربة متحمسين لنشر الاسلام خارج حدود بلادهم ، فكان جيش طارق القائد المغربي مكوناً من أغلبية مغربية ، وانتشر نفوذ العرب ودينهم في الاندلس بعد هذا الفتح المظفر سنة ٩٢ هـ ثم توالت انتصاراتهم العسكرية التي توقفت عن التوغل في اوروبا بعد واقعة بواتيه سنة ١١٤ هـ ٧٣٢ م .

وبعد ان كف التوغل العسكري في اوروبا اتجه الاهتمام الى الحياة الداخلية لفترة طويلة من الزمن في المغرب ، ولفترة قصيرة في الاندلس ، انتهت بمقدم صقر قريش : عبد الرحمن الداخل سنة ١٣٧ هـ : الذي قام بسلسلة من الحروب المحلية والعامة انتهت بتوطيد ملك أموي ازدهرت في عهده الحضارة والثقافة العربية في الاندلس .

---

(١) هي قوله « اللهم اشهد اني قد بلغت المجهود ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد اقاتل من يشرك بك حتى لا يعبد احد من دونك » .

(٢) كانت اعظم مقاومة هي التي ابدتها الاميرة البربرية « الكاهنة » وقد خربت البلاد ظناً منها ان ذلك يثني العرب عن دخولها . ولكنها اوصت اولادها قبيل وفاتها بأن يسلموا ويحبوا الدين الجديد . شأن المغربي الذي يقاوم عن عقيدة وايمان ويخلص عن عقيدة وايمان ايضاً .

د – امتزاج العرب والبربر :

وجه الخلفاء المسلمون الاولون من بني امية عناية خاصة بهـذه البلاد فارسلوا اليها البعثات العلمية والدينية ؛ لنشر الدين واللغة العربية بـين سكانها . ومما زاد هذه العناية والاهتمام اتساعاً ودواماً ، مـا ظهر في البلاد اول عهدها بالفتح من مقاومة عسكرية ، ثم ما قام به بعضهم من ادعاء للنبوة او زعم بانـه المهدي المنتظر ، هذا فضلاً عن المذاهب الدينية الاسلامية المختلفة التي كثيراً مـا تجد رواجاً وبعض النجاح بين المغاربة . وان دل هذا على شيء ؛ فانما يدل على رغبة المغاربة في الاستقلال بشخصيتهم ، والتعبير عن هـذه الشخصية بامكاناتهم الخاصة . ولكن بعض المؤلفين المشارقة في القديم ومنهم ياقوت ، كانوا ينظرون الى هذه المحاولات نظرة لا تخـلو من قساوة ؛ فقد قال ياقوت : « البربر اجفى خلق الله ، واكثرهم طيشاً ، واسرعهم الى الفتنة ، واطوعهم لداعيـة الضلالة ، واصغاهم لنمق الجهالة ولم تخل اجيالهم من الفتنة وسفك الدماء قط . » ! !

وواضح ان ياقوت لم ينظر بعـين الانصاف ، فالفتن والدعوات المذهبية التي يشير اليها ، لم تكن خاصة بالمغرب ، بل منتشرة في كل انحاء العالم الاسلامي بل وفي الدنيا قاطبة خلال العصور الوسطى ، كما ان هـذه المذاهب الخارجة عن الاسلام ، او النابعة منه كانت كلها واردة من الشرق ، وقد وجدت من الرواج والاقبال في الشرق اكثر مما وجدت في المغرب .

وهناك عامل آخر لعب دوراً في هـذا الميدان وهو ما كانت تفرضه الدول المتعاقبـة على المغرب من معتقدات ومذاهب بحد السيف احياناً ، والانسان لا يقبل بسهولة ما يفرض عليه فرضاً ، خاصة فيما يتصل بالرأي والعقيدة ؛ لذلك يلتهز اي فرصة او مناسبة للتحرر ممـا فرض عليه واعتقاد غيره عن رغبة واختيار .

ومهما يكن من امر فاننا اذا تركنا جانباً هـذه المذاهب والحكومات التي

المذهب وتجيء فاننا نلاحظ ان العرب والبربر قد استطاعوا خلال العهود الاولى للاسلام ان ينصهروا في بوتقته ، وان يكوّنوا مجتمعاً واحداً متداخل الاجزاء ملتحم العناصر . وقد ساعد على ذلك كما اشير من قبل ، النشاط الديني والثقافي الكبير الذي بـــذله العرب لتهذيب البربر وافهامهم مبادىء الاسلام وروحه الحقيقية الداعية الى الاخوة والمساواة والسلام . وليس هذا فقط فان وقوع بلاد المغرب في مركز وسط بــين الاندلس والشرق قد اتاح للمسافرين والمتنقلين والتجار بين المشرق والاندلس ان يمروا بهذه البلاد فينقلوا اليها البضائع والسلع، والثروات المادية المختلفة ، كما ينقلون اليها الافكار والكتب والعلماء . ولهذا نجد ياقوت الحموي رغم حكمه القاسي المتقدم يعترف بمـا وصلت اليه بلاد المغرب في عهد الاسلام من رقي وازدهار وحضارة ، فيقول ما معناه : ان هذا مــا نقل بلاد المغرب من امة جافية الى امة لها مدنيتها وثقافتها .

هـ — عصر الولاة :

ظلت بلاد المغرب تابعة للخلافة الاسلامية بالمشرق منذ دخلها عقبة بن نافـع الى ان زالت دولة بني أمية ، وتولى الخلافـــة الاسلامية بنو العباس . وكان الامويون يضعون عاملاً على بلاد المغرب المستقر في القيروان . وقــد تولى العمال الامويون على بـــلاد المغرب بعد عقبة بن نافع وكلهم موفدون من المشرق ومن العنصر العربي ، واشهرهم بعد عقبة حسان بن النعمان وموسى بن نصير وعبيد الله ابن الحبحاب . وقد تميز عهد هؤلاء باعمال جليلة في توطيد الاسلام بـين السكان وفي دعم الاستقرار بالاصلاحات المختلفة .

فحسان هو اول من عرب الدواوين وجعل اللغة العربية لغــة رسمية في بلاد المغرب ، وهو الذي جلب الاقباط من مصر لبناء السفن وانشاء الموانىء وذلك لحمـاية السواحل من الغارات المفاجئة ولتيسير المواصلات والمعاملات البحرية .

وموسى بن نصير في عهده فتحت الاندلس التي يعد فتحها اول عمـل عسكري عظيم حققه المغاربة تحت راية الاسلام .

والى عبيدالله بن الحبحاب ينسب تأسيس وبنـاء جامع الزيتونة الذي اصبح فيما بعد مركزاً عظيماً للثقافة واللغة العربية طيلة قرون عديدة والحجب عباقرة كثيرين امثال ابن خلدون وابن عرفة .

٢ ـ الدول المستقرة

أ ـ الادارسة :

لما انتقلت الخلافة الى بني العباس سنة ١٣٢ هـ وانتقل مركزهـا الى بغداد ، بدأت حركات انفصالية في بلاد المغرب ، وكان قادة هذه الحركات في الأغلب من العلويين المطالبين بالخلافة ، واول دولة اقامها الانفصاليون هي دولة الادارسة التي اسسها بالمغرب الاقصى ادريس بن عبدالله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط ابن علي بن أبي طالب سنة ١٦٩ هـ وبويع بالخلافـة سنة ١٧٢ واستمرت دولة الادارسة الى سنة ٣٧٥ ، حين ازالها الفاطميون .

ب ـ بنو الاغلب :

أسس ابراهيم بن الأغلب التميمي سنة ١٨٤ دولة بافريقيا وجعل القيروان عاصمة لها ، وقد عظمت دولتهم وأنشأوا اسطولاً قويـاً في البحر الأبيض فتحوا به صقلية ومالطة وسردينية ، وكان عهدهم عهد سيطرة قوية على البحر ، وقد استعادت البلاد في عهدهم كثيراً من رخائها وازدهار حياتهـا الاقتصادية والزراعية التي كانت لها قبل تخريب الكاهنة . وقد استمرت دولتهم الى ان ازالها الفاطميون سنة ٢٩٦ .

ج — الفاطميون :

ظهر الفاطميون في اول الامر بالمغرب الاقصى سنة ٢٩٦ بزعامة ابي عبدالله محمد عبيدالله المهدي وما لبثت ان بسطت سيطرتهـــا على كامل بلاد المغرب العربي ، واتخذت من مدينة المهدية عاصمة لها وقد اسسها سنة ٣٠٠ المهدي ودام بناؤها خمس سنوات . وكان فيها ميـنـــاء بحري عظيم يغلق بالسلاسل بعد ان تستقر به السفن .

وفي عهد الفاطميين انتشر مذهب الشيعةعن طريق الدعاية والتبشير واحياناً عن طريق السيف والقوة . وقد ازدهرت الحياة الادبية والعلمية والاقتصادية في عهدهم . واتسعت جوانب النهضة والحضارة التي اسسها الاغالبة من قبلهم .

ولما قوي نفوذ الفاطميين زحفوا على الشرق سنة ٣٥٨ هـ فاستولوا على مصر والشام واليمن والحجــاز . واخذوا البيعة بالخلافـــة من كل هذه الاقطار ، وباستيلائهم على الشام هددوا الخلافة العباسية في العراق .

د — الصنهاجيون :

ولم يمض وقت طويل على استقرار الفاطميين في مصر وتأسيسهم مدينـــة القاهرة والجامع الأزهر ، وجعلها عاصمة لهم حتى بدأ نفوذهم في المغرب يضعف ويتلاشى ، ووجد عمالهم الصنهـــاجيون الفرصة سانحة ، فأعلنوا الانفصال عن الفاطميين سنة ٤٣٥هـ ، وتمكن يوسف بن بلكين من بسط سلطانـــه على كامل تونس والجزائر . وقد اشتهر من ملوك هذه الدولة الصنهاجية (وهي بربرية) باديس بن يوسف ، وابنه المعز ، الذي حمل الناس بافريقيــة على مذهب مالك ، وكان اكثرهم من قبل على مذهب ابي حنيفة او شيعة ، وجاء بعد المعز ابنه تميم

الذي كان شاعراً كبيراً كما كان ابوه شاعراً ايضاً. وفي عهد تميم ظهرت الانقسامات الخطيرة في البلاد واصبحت كالاندلس تحت رحمة ملوك الطوائف . وكان هـذا الانقسام بعد زحف الهلاليين المشهور في التاريخ وبفعل هذين العـاملين دخلت البلاد في عهد تدهور وانحلال طويلين .

٣ ـ عصر الازدهار

تمهيد

في عهد المعز الصنهاجي بلغت الحضارة والثقافة في المغرب مبلغاً عظيماً ، ونبغ عدد كبير من العلماء والأدباء . وكان البلاط الصنهاجي زاخراً بكثير من نبغائهم . كما كان من قبل البلاط الفاطمي في المهدية يعج بالشعراء المدّاحين ، وفي طليعتهم ابن هانىء الذي كان أقوامهم شاعرية واكثرهم مدحاً للمعز الفاطمي ، وتسجيلاً لمفاخر الفاطميين واعمالهم الانشائية والعسكرية ، وليس له من شبيه في هذه الناحية سوى المتنبي مع سيف الدولة . ومن شعره في المعز الفاطمي بعد انتصاره في مصر قوله :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم ، فأنت الواحد القهار !

وقد استمر ازدهار الحضارة وتقدم العلوم والآداب في المغرب الى منتصف القرن الخامس الهجري حين توقف كل شيء فجأة، بل انهار دفعة واحدة وأوشك ان يضيع كل شيء ؛ وذلك بتأثير زحف الهلاليين وما قاموا به من تدمير وتخريب ، نال القيروان – مركز الاشعاع الحضاري – نصيباً كبيراً أليماً ، فتلاشى كثير من العمران ، وقتل عدد من العلماء والأدباء ومن نجا منهم فر الى صقلية او الاندلس كابن رشيق وابن شرف والحصري والضرير .

ويلتهي العصر الذي نريد دراسة شخصيات منه الى هذا التاريخ ، وان كان تاريخ بعض الشخصيـــات يمتد فترة اخرى من الزمن حيث عاشوا في أماكن اخرى خارج المغرب ، كابن رشيق الذي هاجر الى صقليـة ، وابن شرف الذي انتقل الى الاندلس ؛ ذلك ان هاتين الشخصيتين – وخاصة ابن رشيق – هما من اروع الشخصيات التي تمثل عصر الازدهار الادبي في المغرب العربي .

ومن الواضح ان عصر الازدهار الذي نعنيه يشمل مائة عـام تقريباً اي من منتصف القرن الرابع الى منتصف القرن الخامس . وقد استعرضنا في ايجـــاز احوال المغرب السياسية منذ الفتح الى خراب القيروان، وتخلل ذلك الاستعراض لمح مختلفة عن جوانب اخرى من الحياة الادبية والاقتصادية . ومع ذلك ينبغي ان نقف وقفات طويلة ، لنستطلع ما وصلت اليه الثقافة والآداب في المغرب ، في عصر الازدهار الصنهاجي مع استعراض عام للحيـــاة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية التي كان لها تأثير على الحياة الثقافية في هذا العصر .

أ – الحياة السياسية :

تقدم لنا ما يفيد قيام الدولة الصنهاجية والظروف التي ساعدت على استقرارها ورأينا كيف ان مؤسسها لم يكن سوى عامل على البلاد من طرف الفاطميين في مصر ، فلما شعر المعز بضعفهم وبرسوخ نفوذه اعلن الانفصال عنهم بطريقة فيها كثير من التحدي اذ هو لم يكتف بالانفصال بل اعلن الولاء للخلافة العبـاسية وقطع الخطبة عن الفاطميين في المساجد وجعلها للعباسيين ولم يكتف بذلك بل حارب مذهب الشيعة بين السكان ولاحق اتباعه وعزز مذهب السنة اي مذهب الامام مالك .

وعلى اية حال فان العصر الصنهاجي رغم الثورات والاضطرابات التي تكاد لا تنقطع قد أتاح للبلاد فترة طويلة من الاستقرار الذي كان عاملا اساسيـاً من

عوامل ازدهار الحياة الثقافية والادبية بوجه خاص ، ويجب ان نتذكر ان هذا الاستقرار قد سبقه استقرار نسبي آخر في عهد الفاطميين قبل انتقالهم الى مصر سنة ٣٦١ وقد اتصلت فترتا الاستقرار ببعضها دون حدوث انقطاع من شأنه ان يعكر سير الحضارة . ولا ننسَ هنا الجهد والاهتمام الكبيرين اللذين بذلهما عدد من أمراء هذه الدولة نحو العلم والعمران خاصة الامير باديس وابنه المعز وابنه تميم الذين عنوا عناية فائقة بنشر التعليم وتشجيع العلماء والأدباء فبذلوا جهدهم في جعل الامن يستتب والحياة الاقتصادية تزدهر والعمران يتقدم . ويكفي ان نستشهد هنا بما قاله ابن خلكان عن المعز بن باديس من انه : « كان محباً لأهل العلم ، كثير العطاء ، مدحه الشعراء وانتجعه الأدباء. وكانت حضرته محط بني الآمال » وقال عن ابنه الامير تميم : « كان محباً للعلماء معظماً لارباب الفضائل حتى قصدتهُ الشعراء من الآفاق على بعد الدار كابن السراج الصوري وانظاره ، وكان يجيز الجوائز السنية ويعطي العطاء الجزيل » .

ولا شك ان هذه الحفاوة والتقدير والكرم في الجوائز والعطاء هي الاجواء التي تساعد على ازدهار الادب في تلك العصور ، فلا غرابة ان « تسابق الناس الى المعارف والآداب ، وابرزوا نتائج افكارهم ودونوا ابحاثهم ، استجداءً لعطايا الامراء والاغنياء او اظهاراً لمواهبهم واقتدارهم ، او لمجرد النفع العام وتخليداً لذكرهم » [١] .

وهكذا نرى ان استقرار الحياة السياسية في هذا العصر الذي يعد العصر الذهبي للحياة الثقافية في المغرب العربي ، والذي يمكن تقديره بمائة سنة على الاقل ، اي من منتصف القرن الرابع الى منتصف القرن الخامس قد مكن الحياة الادبية من التقدم والرقي ومن التنوع والابتكار . وهو العصر الذي ظهر فيه اعلام الثقافة والادب الكبار امثال النهشلي والقزاز والحصري وابن شرف

---

(١) المنتخب المدرسي ص ٥٠

وابن رشيق .

الهلاليون : الا ان فترة الاستقرار هذه لم تدم اكثر من ذلك مع الاسف ، فما كاد المعز يعلن انفصاله عن الفاطميين سنة ٤٣٥ هـ وارتباطه بالعباسيين — اعداء الفاطميين الألداء — حتى احس السنيون في القيروان ان مركزهم قد تعزز فاخذوا يضطهدون الشيعة انتقاماً ورد فعل لما كان الشيعة قد قاموا به نحوهم في عهد الفاطميين ، وبذلك اطلق العنان للفتن المذهبية فسفكت الدماء بغير حساب .

وبلغ الامر الى الفاطميين في مصر ، وكانت الانقلابات والفتن الداخلية فيها قد انهكت قواهم العسكرية ، فلم يستطيعوا ارسال قوة يؤدبون بها المعز ويرجعون البلاد الى نفوذهم ، فعمدوا الى مكيدة تخريبية مشهورة في التاريخ ، وهي ارسال قبائل من الاعراب كانت تقيم في الصعيد المصري الى افريقية لتنتقم لهم من المعز ومن اهل البلاد الذين نكلوا بالشيعة . وقد اغروا زعماءهم بما قدموه لهم من مال ، وبما اباحوه لهم من نهب . وهكذا قدمت هذه القبائل التي كان عدد افرادها يناهز نصف مليون رجل ، وبدأوا بحملة رعب مهولة في برقة تردد صداها في انحاء افريقية وخاصة بالقيروان ، واحدثت بلبلة حتى في صفوف جيش المعز ، فلم يستطع ان يثبت امامهم اكثر من اربع سنوات ، دخلوا بعدها الى القيروان ففتكوا بأهلها وخربوا عمرانها ، فلجأ المعز الى المهدية واتخذها عاصمة له . واحدثت هذه الفاجعة صدى عميقاً في الادب بالمغرب لا يقل عن الصدى الذي احدثه تخريب الزنج لمدينة البصرة في ثورتهم سنة (٢٤٣ هـ — ٨٧٠م) .

ب — اجتماعياً :

كانت القيروان في العصر الذي نؤرخ له تعدّ من ازهى عواصم العالم العربي

الى جانب دمشق والكوفة وبغداد وقرطبة . وكانت الحياة الاجتماعية فيها على غاية من النشاط واتساع العمران . وكان سكانها قد انتشرت بينهم حياة الدعة والرخاء والبذخ ، ويذكر الاستاذ ح عبد الوهاب [1] ان الابلية فيها كانت تتخللها البساتين وان ما يقرب من ثلاثين ضاحية كانت تمتد حولها .. وقد اشتهرت منها ضواحي : جلولا ، والمنصورية ، والحصر ، وبني تميم ، ورقادة . وكانت انواع الملاهي واسباب الارتزاق التجاري كثيرة متعددة كتعدد معاهد العلم واماكن العبادة ولهذا كثر رواد المدينة والوافدون اليها من انحاء المشرق والمغرب والاندلس على السواء وكانوا يفدون للتجارة او للهو او طلباً للعلم .

على ان القيروان لم تكن منفردة بهذا الازدهار الشامل بل كانت تشاركها فيه ايضاً كل من فاس والمسيلة وقابس وصفاقس وقفصه وتوزر وباجه والمهدية وتونس .

ولم يتميز عصر الصنهاجيين ببعث النشاط والعمران في المدن الموجودة من قبل فحسب بل اسسوا مدناً اخرى كانت هي ايضاً مراكز لمثل هذا الازدهار، منها مدينة الجزائر ومليانة والمدية وغيرها .

وكانت حياة المدن زاخرة بنشاط الطبقات الشعبية ، سواء في الكد والعمل او في الراحة واللهو . وكان اكثر ولوعهم في اوقات الراحة بسباق الخيل او الحراب او الجلوس حول موائد الشطرنج ، وكذلك حول القصاصين في مجالسهم الشعبية ، كما كان الشبان يترددون بكثرة على محال الغناء والرقص وخاصة في ضاحية القرية ، فقد حكى ابن رشيق : « ان الشاعر بكر بن علي الصابوني دخل الى محل قيان فوجد جماعة من اخوانه يشربون ، منهم ابن ابي حفص الكاتب ورأى برذونه [1] قائماً في السعيفة فقال كم لكم ها هنا ؟ فقالوا كذا وكذا يوماً ،

---

(١) بساط العقيق ص ١٤ .

(٢) نوع من الحير الكبيرة .

فشرب نهاره اجمع وليله وأراد الانصراف من الغد فافتقد رداءه ودراهمه ولم يعثر لهما على اثر ، فقال لأبي حفص الكاتب : سألتك بالله ان تنزل الى هذا العبد الصالح فتستوهب لنا منه دعوة بأن يفضح الله سارقنا فانه — اي العبد الصالح — صائم النهار قائم الليل . قال : واي عبد يكون هذا ؟ قال : هو برذونك يا سيدي ؟ فضحك الجماعة وانصرفوا » .

وقد اوردنا هذه القصة لانها تصور جانباً من حياة اللهو التي كان يعيشها الناس لا بالساعات بل بالايام والليالي ، ثم لانها تصور لنا جمال النكتة الراقية وجو المرح النفسي .

وكان الموسرون من الناس في هذه المناسبات يبالغون في التأنق في اللباس ، حتى قيل ان احد قضاة القيروان ترك كسوة بعد وفاته قوّمت بألف دينار .

أما المرأة فكانت تعتمد في اناقة لباسها على الحلي بالخصوص ، وعلى اصوات الخلخال وهي تمشي في الشوارع فيحدث مشيها رنة ملفتة للانظار .

أما انواع الأكل والحلويات فقد تفنن فيها الناس في هذا العصر ، وما تزال مدينة القيروان الى اليوم تحتفظ بجانب من مظاهر هذه الحضارة[١] .

ج – اقتصادياً :

تعد بلاد المغرب العربي من اجود المناطق الصالحة للفلاحة ومن اكثرها تنوعاً من حيث طيبة الارض ، فهي تحتوي على الجبال والسهول ، كما تحتوي على الصحراء والشواطىء . وقد قيل ان العرب عندما فتحوا هذه البلاد وجدوا ظلال الاشجار لا تنقطع فيها من طرابلس الغرب الى قسطنطينة .

---

(١) راجع بساط العقيق .

والحق ان بلاد المغرب ليست غنية بجبالها المكسوة بالغـــابات فحسب بل كانت سهولها مغطاة بالبساتين الممتدة حول الانهار والعيون والآبار ، وكذلك بحقول الحبوب والمزارع، كما كانت صحراؤها ولا تزال مطرزة بواحات النخيل.

واكثر منتوجات هذه البـــلاد هي الحيوانات والزيوت وشتى انواع الخضر والحبوب والبقول .

وكانت كل هذه المواد تنتقل بين مختلف منـــاطق المغرب العربي ، وتصدر كميات منها الى الخارج خاصة الى الشرق والى الاندلس .

أما الصناعة فقد كانت على جانب كبير من التقدم والاتقان ، وتعد عنصراً هاماً من ثروة الشعب العامة ، ورفاهيته .

واذا صرفنا النظر عن الصناعات الحربية الصغيرة منها والكبيرة كبنـــاء السفن والحرّاقات وانواع الاسلحة ، فاننا نجد في طليعة الصناعات المدنيـــة : الحرير والزرابي والمنسوجات القطنية والصوفية والحريرية بأنواعها الكثيرة .

وقد بلغت صناعة المنسوجات درجة عالية من الاتقان والتفنن ومثل ذلك يقال عن المصنوعات الجلدية التي كانت تطرز بأسلاك الفضـــة . وكذلك كان الاتقان والتفنن طابع كثير من الصناعات الممتازة مثل المجوهرات ، والزجاج والورق الذي كانت اوروبا تستورده من تونس ، وكانت صناعتـــه من انشط الصناعات واكثرها انتشاراً ونجاحاً بين سكان القيروان خاصة .

وكان كل هذا النشاط الصناعي والتجاري يساهم في تشغيل اليـــد العاملة ، وتنشيط حركة الصادرات بالموانىء .

كذلك مكن هذا النشاط الاقتصادي الدولة الصنهاجيـــة بالخصوص من ان تكون من اوفر الدول مالاً ، حتى قال ابن خلدون عنها : كان الصنهاجيون

بافريقيا اذا أجازوا الوفود من امراء زناتة فانما يعطونهم المـال احمالاً والكسا تخوتاً مملوءة والحملان جنائب عديدة » .

د - دينيـاً :

يعتبر أبنـــاء المغرب العربي سواء قبل الاسلام او بعده من أقوى الشعوب حرارة في عاطفة التدين .

وقد كان الدين المنتشر فيهم هو الوثنية في الدرجـــة الاولى ، والمسيحية واليهودية في الدرجة الثانية ، وكانت الوثنية اكثر انتشاراً في البوادي والجبال بينما المسيحية واليهودية كانتا سائدتين اكثر في المدن .

فلما جاء الاسلام قاومه البربر اول الامر بشدة لم يعرف العرب لهـا مثيلاً في بقية الاقطار التي فتحوها ، ولكن عندما استتب الدين الجديد وفهمه المغـاربة على حقيقته تغيرت نظرتهم اليه وشعروا بأن الاسلام ليس شبيهاً بالغزو الروماني فكان اعتناقهم وتحمسهم له لا يقل حرارة وصدقاً واخلاصاً عن مقـــاومتهم الاولى له .

وقد أشرنا من قبل الى الجهود التي بذلها الامويون في نشر القرآن والعربيـة والتعاليم الدينية بين المغاربة .

فلما تولى الاغالبة الامر في البلاد (١٨٤ – ٢٩٦) ساروا خطوات اوسع واعمق في تركيز كل من التعاليم الدينية واللغـــة العربية كما وجهوا في الحقل الاجتماعي عناية خاصة لتحضير البدو حتى ينتشلوهم مما يتعرضون له باستمرار من اسباب الفتن والفوضى ، وكانت لهم في هـــذا الميدان سياسة رشيدة حقاً وبعيدة النظر .

وكان المذهب الاسلامي السائد في عصر الاغالبة هو مذهب الامام مالك، لمـــا يتصف به من بساطة وتشدد في آن واحـد تتفقان مع بسـاطة الجماهير وعاطفة التصلب الديني عند المغاربة .

اما في عهد الفاطميين فقد اقتضت الملابسات السياسية التي صاحبت نشوء دولتهم ان يتسامحوا مع اهل السنة في بداية الامر ، حتى اذا قبضوا على زمام الامور بيد قوية أخــــذوا يفرضون على الناس اعتناق المذهب الشيعي ، واستعملوا لذلك القوة حيناً والدعاية الشعبية احياناً ، ومن ذلـــك اختراع اعياد ليست من صميم الدين بـــل هي مذهبية بحتة كعيد عاشوراء ، وكبث المدّاحين او القوالين فيقيمون المجالس والحلقات يفيضون فيها الحديث والقصص باسلوب شيق حول مكانـة ابناء فاطمة بنت الرسول ، وخاصة حول بطولة ابيهم الامام علي بن ابي طالب وما ابداه في سبيل الاسلام من جهاد وما تحلى به من صفات تكاد تكون مقدسة عند الشيعة ، وهي في نظرهم الصفات التي ينبغي ان يتصف بها الامام .

وما تزال آثار هذه القصص منتشرة الى العصر الحاضر في مختلف انحـاء المغرب العربي .

وفي عصر الصنهاجيين استمرت الحياة الدينية كما تركها الفاطميون عندما انتقلوا الى مصر سنة ٣٦١ هـ وحافظ الصنهاجيون على ولائهم السياسي والمذهبي نحو الفاطميين الى ان جاء المعز (٤٠٦ — ٤٥٣) واعلن انفصاله عن الفاطميين سياسياً (٤٣٥) ، ثم مذهبياً (٤٣٩) ، بعـد انضمامه الى العباسيين ، واخذ منذ هذا الحين يقاوم مذهب الشيعة ويعزز مذهب الامام مالك ، مستعيناً في ذلك باحياء ذكريات الاضطهاد الشيعي في نفوس الجماهير .

ومنذ عهد المعز الصنهاجي ، استتب المذهب المالكي نهائيـــاً في اقطار

المغرب وقد زاده استحكاماً بعد ذلك الاندلسيون المهاجرون بعـــد ضياع الاندلس .

ومن المناسب ان نذكر هنا رأيا اورده المستشرق الروسي « ف. بارتولد » يتصل باستقرار مذهب مالك وحده في بلاد المغرب ، وهو :

« ... وقـــد انتصر المذهب المالكي في افريقيا الشمالية ، ولم يقدر على الاستقرار في البلاد الاخرى كثيراً ، ويجعل بعض العلماء هـــذا الامر سبباً لتأخر هذا الركن من البلاد الاسلامية حضارة » [1] .

ويمكن الرد على هذا الرأي بأن بلاد المغرب قـد بلغت أوج حضارتها في عصر الاغالبة الذين كانوا قد ايدوا مذهب مالك ونشروه في البلاد ، ومثل هذا يقال عن صقلية والاندلس اللتين كانت السيادة فيهما لمذهب مالك وحده، ولم يحـل ذلك دون بلوغهما مستوى من الحضارة لا يقل في شيء عن مستوى حضارة العرب في الشرق .

---

(١) تاريخ الحضارة الاسلامية ص ٥٥

٤ ـ الحياة الثقافية

أ – مراكزها :

كانت القيروان اولى المدن التي تأسست في الاسلام ، وقد ظلت طيلة قرون عديدة مركز الاشعاع الثقافي الديني ، كما كانت عاصمة سياسية طيلة نفس المدة تقريباً ووصف ابن خلدون مدينة القيروان وكيفية تأسيسها فقال: « اختط عقبة القيروان وبنى بها المسجد الجامع وبنى الناس مساكنهم ومساجدهم ، وكان دورها ثلاثة آلاف وستمائة باع . وتمت في خمس سنين ».

ووصفها المقدسي في القرن الرابع ، فقال : « كانت مصراً بهياً عظيماً قد جمع اضداد الفواكه ، والسهل والجبل ، مع علم كثير ، لا ترى ارفق من اهلها ، ليس بينهم غير حنفي ومالكي مع ألفة عجيبة ، لا شغب بينهم ولا عصبية ؛ فهي مفخرة المغرب ومركز السلطان واحد الاركان . ارقى من نيسبور ، واكبر من دمشق ، واجل من اصبهان ... بها جامع[1] بموضع يسمى السماط الكبير ... وهو اكبر من جامع ابن طولون[2] ، بأعمدة من

---

(١) هو جامع عقبة بن نافع .

(٢) احد الملوك الانفصاليين بمصر عن الدولة العباسية سنة ٢٥٤ .

الرخام ومفروش بالرخام » .

ان هذا الوصف القصير ذو قيمة كبيرة ، فهو على تعميمـه يعطي صورة رائعة عما وصلت اليه القيروان في القرن الرابع – الذي نؤرخ حيـاته الأدبية – من حضارة وعمران وتقدم واسع في جميع نواحي الحياة . وفي هذه المدينة نشأ وذاع صيت الذين سنترجم لهم باستثناء ابن هـانيء الذي نشأ في الاندلس وان كان اصله من المهدية .

والى جانب القيروان كانت هناك مراكز ثانوية اخرى للثقافة والآداب ، وقد وصل بعضها الى الدرجة الاولى في فترات معينة من التاريخ مثل المهدية، وتاهرت – عمالة وهران – وتلمسان ، وفاس .

وكانت القيروان ترسل الى مختلف هذه المدن بعلمائها ، كلما تتلقى طلاباً يدرسون فيها من جميع انحاء المغرب العربي ، وقد كان دور القيروان الثقافي هذا قديماً منذ عهد الاغالبة عندما اسست السيدة فاطمة ام البنين سنة ٢٥٥هـ ٩١٩ م جامع القرويين بمدينة فاس ليكون مسجداً للعبـادة ومعهداً للعلم ، شأنه شأن جميع المساجد الكبرى في العالم الاسلامي .

ب – انواعها :

اشرنا فيما تقدم الى الجهود التي بذلها العرب في نشر الاسلام وتعليم العربية الى البربر منذ زمن مبكر ومن هنا كانت العنـاية الاولى والاهتمام الاكبر متجهين خلال عصور التاريخ الماضية الى العلوم الدينية . ولهذا امتاز النشاط الثقافي في بلاد المغرب عامة بكثرة الفقهـاء والمحدثين ، كما امتازت ثقافـة المغرب الاسلامية بنقص واضح في الفلسفة والعلوم العملية ، وان كانت في الواقع لم تحرم من عباقرة رفعوا شأنها الى القمة في هذه الميـادين بالذات ،

وترك كل واحد منهم طابعاً بارزاً جداً في ميدان ما من ميادين الثقافة العربية في المغرب ، بل في العالم العربي كله ؛ فابن خلدون (٧٣٢ — ٨٠٨ هـ = ١٣٣٢ — ١٤٠٦ م) ارتقى بالتاريخ من السرد والقصص الساذج الى درجة العلم المفلسف ، وتعتبر مقدمته المشهورة فتحاً جديداً في هذا الميدان لم يسبق اليه ولم ينسج على منواله احد من بعده في العربية مع الاسف[١] .

ومنهم جمال الدين ابن منظور القفصي (٦٣٠—٧١١ هـ ١٢٣٢—١٣١١ م) صاحب معجم لسان العرب الذي يعتبر اكبر موسوعة في مادة اللغة العربية.

وابن رشيق (٣٨٥ — ٤٥٦ هـ) صاحب العمدة التي تعتبر اول محاولة في العربية وضعت اسس النقد الادبي الصحيح[٢] .

وابن طفيل (٥٩٢ هـ — ١١٨٥ م) صاحب قصة « حي بن يقظان » التي تعد اولى قصة فلسفية كتبت بالعربية .

ومن هؤلاء الاعلام العباقرة نذكر الحصري صاحب زهر الآداب الذي يعد من اضخم المصادر لتاريخ الادب العربي[٣] .

وابن ظفر الصقلي الذي هو اول من ألف في ادب الاطفال [٤] .

وابن الجزار الذي تجاوزت شهرته في الطب حدود العالم الاسلامي الى اوروبا، والذي كان الى جانب علمه الواسع في الطب والتاريخ يعطي كثيراً من وقته لمعالجة المرضى . وعلي بن ابي الرجال الفلكي الشهير ، ومثله احمد بن يوسف التفاشي القفصي الذي كانت كتبه معتمدة عند علماء الفلك باوروبا الى زمن متأخر .

---

(١) راجع دراسات عن مقدمة ابن خلدون للاستاذ ساطع الحصري .

(٢و٣) راجع ترجمتها في الشخصيات .

(٤) راجع مقالاً للاستاذ عثمان الكعاك نشره بمجلة المباحث التونسية ع ٢٩ — ٣٠ .

ولكن هؤلاء رغم اهمية انتاجهم المبتكر كانوا قـلة بالنسبة الى الكثرة الغالبة من الفقهاء والمحدثين .

ومن اعـلام الفقه الذين نبغوا وتركوا صدى قوياً في التفكير الديني الاسلامي : اسد بن الفرات ، الذي تولى قضاء افريقية في عهـد الاغالبة ، وقاد جيشهم لفتح صقلية حيث تمكن من الظفر بانتصارات ساحقة واستشهد قبل النصر الاخير . والامـام سحنون وابنه محمد . وابو محمد عبدالله بن ابي زيد القيرواني الملقب بـ « مالك الصغير » لشهرته وكثرة علمـه بفقه مالك . وعلي بن محمد القابسي صاحب الآراء القيمة في التربية (١) .

كان العلماء في هـذا العصر يتحلون بكثير من الصفات الحقيقية للعلماء ، كحرية البحث والتسامح ، وبذل الجهد والمال وتحمل المشاق الكثيرة ، بما في ذلك السفر الطويل في سبيل العلم . ولو ترك الامر للعـلم وحده او للعلماء وحدهم لكان الشأن غـير الذي نعرفه في التاريخ ، ولكن السياسة وتعصب ذوي السلطان الى مذاهب او آراء معينة، كل هذا كان يجر في بعض الفترات محناً ونكبات على العلماء ، وبالتالي على العلم نفسه.؛ وقد لقي عدد من العلماء الاضطهاد والموت احياناً بسبب شهوة الحكام هذه في فرض آرائهم ومذاهبهم على الشعب ، وقـد قيل ان الفاطميين قتلوا من اجلـّة علماء القيروان خمسة وثمانين عالماً في سنة ٣٣٦ هـ وحدها !!

ج – امتدادها :

تعتبر صقلية امتداداً ثقافياً لبلاد المغرب ، كما كانت امتداداً سياسياً لها ، وهي مع بلاد المغرب والاندلس تكوّن جميعها وحدة ثقافية تميزت في التراث

(١) انظر كتاب « التربية في رأي القابسي » للدكتور احمد فؤاد الاهواني .

الثقافي العربي الاسلامي العام بطابع خاص . ورغم ان الأندلس بلغت شوطاً ابعد واوسع ما بلغته صقلية والمغرب في الثقافة والحضارة حتى عدت بمثابة العراق في الشرق واعتبرت قرطبة كبغداد ، اي انها منطقة ارتكاز واشعاع في بلاد المغرب كما هو الحال بالنسبة للعراق في بلاد المشرق ، رغم ذلك بأن الصلات والتفاعل كانا كاملين بين هـذه الاقاليم الثلاثة لامتزاج عناصر سكانها وكثرة الاتصال والانتقال والعلاقات المتشابكة المختلفة .

ولهذا تعد بلاد الاندلس وصقلية من حيث تراثها الثقافي بلاداً مغربية ؛ خاصة وان كثرة هائلة من سكانها النازحين اليها بعد الاسلام قد كانوا من اهل المغرب . ولا شك ان مساهمة هؤلاء كانت فعالة في جملة التراث العربي الاسلامي ؛ كما كانت فعالة في الفتح العسكري ونشر الاسلام .

وهنا ينبغي ان نشير قبل استعراض الثقافة الادبية المغربية ، الى اهمية الدور الذي قامت به كل من صقلية والاندلس والذي فاق في الاخيرة منه على الاخص حتى الدور الذي قام به المغرب [1] . وفي بعض الفنون او ميادين الفكر نلاحظ سبقاً وابتكاراً لم يصل اليها الفكر او الادب العربي في المشرق، كفلسفة ابن رشد وفن الموشحات الذي ابتكر في الاندلس . وكذلك فان صقلية قد لعبت دوراً بارزاً ، ليس فقط في الثقافة العربية وعلاقتها ببلاد المغرب وانما ايضاً وعلى الاخص في النهضة الاوروبية الحديثة ، والذي يعنينا هنا هو الدور الاول حيث انجبت صقلية كثيراً من العلماء والمثقفين واصبحت في عصر ازدهارها المتفق في الزمان تقريباً مع الازدهار في المغرب ، اصبحت في عصرها هذا يضرب المثل بمثقفيها جودة وعلماً ، فيقال « فلان تلقى علمه في صقلية » وما يزال حياً الى اليوم في كلامنا العامي مـا يؤكد هذه الحقيقة ،

---

(١) نستعمل كلمة المغرب في هذا الكتاب بمعناها القديم الذي يشمل مـا يعرف اليوم باسم: ليبيا ، تونس ، الجزائر ، المغرب الاقصى .

حيث يقولون « الطبيب الصقلي » تعظيماً للطبيب الماهر ، وتقديراً لعلو مقدرته ، ولا شك ان هذا منحدر من عصر الازدهار الذي وصلت اليه صقلية .

ولعل من الاسباب التي جعلت بلاد المغرب العربي تزدهر ثقافتها الدينية وتنكمش ثقافتها العلمية والفلسفية بعض الشيء هو استمرار الثورات والفتن مما جعل المجتمع لا يتمتع بفترة كافية من الاستقرار الذي لا بد منه للنهوض والتقدم الحضاري والفكري. وكان من هذه الاسباب ايضاً انصراف المسؤولين ورجال الدول في المغرب الى تنمية القوة العسكرية للمحافظة على مراكزهم اكثر من انصرافهم الى الاعتناء بالثقافة والفكر ؛ ونلاحظ هذا الاتجاه العسكري منذ القرن الاول للهجرة حيث استقر في نهايته العرب بعض الاستقرار فوجهوا اهتمامهم في الحال الى انشاء قوة بحرية لحماية السواحل وغزو الشواطىء الاوروبية . وهكذا جلب حسان بن النعمان الف عائلة من الأقباط المصريين المختصين بصناعة السفن والفنون البحرية وأنزلهم في الثغور التونسية خاصة في قرطاجنة فبنوا له اسطولاً ظل يتعاظم شأنه حتى استطاع بنو الأغلب ان يحتلوا به قسماً كبيراً من ايطاليا الجنوبية وجزر البحر الأبيض المتوسط . وقد بقيت الأساطيل البحرية لدول المغرب قوة هائلة طيلة العصور الاسلامية . ولعبت البحرية المغربية دوراً هائلاً في تاريخ الملاحة العربية حربية وتجارية ، في حوض البحر الأبيض المتوسط « الذي كان بحراً لاتينياً فأصبح بحراً عربياً حقيقياً ، وأصبحت العربية في كل شواطئه لغة دولية للتجارة والعلم » [1] وعندما ضعفت وحدة المغرب السياسية واقتسم حكمه ملوك الطوائف ضعفت البحرية المغربية كقوة دولية ولكنها بقيت خطيرة الشأن في ميدان المغامرات والغارات الفردية او ما يسمى « بالقرصنة » ، وقد استطاع بعض المغامرين المغاربة ان يهددوا روما بالسقوط والفتح مرتين [2]

(١) المعجزة العربية ص ٦٦ — ٦٧.
(٢) راجع « مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام » .

وظلت قوة المغاربة البحرية مرهوبة الى مطلع القرن الثـامن عشر حيث كان لليبيا وللجزائر في هذا العصر قوة بحرية هددت المواصلات التجارية واضطرت بعض الدول الأوروبية وحتى الولايات المتحدة الاميركية الى دفع ضريبـــة سنوية مقابل سلامة قوافلها التجارية [1]

د — النهضة الادبية :

كانت النهضة الادبية ضعيفة ضئيلة في اول الأمر لحداثة العربية في هــذه البلاد ثم انتشرت بعد ذلك شيئاً فشيئـاً بواسطة المعلمين المبعوثين من طرف الخلافة الأموية في الشرق لتعليم العربية والدين والقرآن للبربر ، ونذكر هنـا ان الخليفة عمر بن عبد العزيز قد ارسل بعثة مكونة من عشرة فقهـاء حلوا بالقيروان في مطلع القرن الثاني للهجرة ، وقد ذكرنا سابقاً ما قام به هؤلاء وغيرهم من دور عظيم لنشر العربية والدين الاسلامي في هذه البلاد. ولا ننس هنا ما قلناه سابقاً من جعل العربية لغة الدولة الرسمية في عهد حسان بأمر من الخليفة عبد الملك بن مروان الذي امر باحلال العربية محل جميع اللغات الاخرى في اقاليم الدولة الاموية ، ولا شك ان لهذا كله اثره الفعال في انتشار العربية بين السكان. واهتمامهم بالأدب والثقافة العربية بوجه عام. ومن الواضح ان مسائل الدين وعلومه كانت اسبق في الانتشار والازدهار ولكن انتشر معها ايضاً القرآن والحديث فأدى انتشارهمـا شيئاً فشيئاً الى انتشار اللغة العربية والأدب العربي وازدادا مع الأيام تمكناً وارتقاء . وبـــدأ البربر يجدون في دراسة اللغة والادب العربيين مرتعـــاً خصيباً للتعبير عن خلجات نفوسهم وللتأليف في الفقه والحديث اول الأمر . وتطور كل ذلك مــع توالي السنين وظهور أجيال جديدة نشأت نشأة عربية محضة وتلقت تعليماً عربياً كاملاً

(١) راجع « دراسات في التاريخ الليبي » ص ١٣٩ — ١٤٦ .

فتفتقت القرائح والأذهان وبدأ يظهر الشعراء والخطباء والكتـــاب . ويعد عهد الأغالبة اول عصر لازدهار الأدب العربي في المغرب فقد ظهر فيه عدد من الأدباء يمكن اعتبارهم على قلتهم ممثلين لمظاهر نهضة أدبية مـــا زالت في بدايتها . وكان عدد من الامراء الأغالبة أنفسهم شعراء كابراهيم بن الأغلب مؤسس الدولة الأغلبية وحفيده الأمير ابو العباس بن الأغلب . ومن شعر الأول قوله يفخر بنفسه :

ما سار عزمي الى قوم وان كثروا　　　الا رمى شعبهم بالحزم فانصدعا
ولا اقول اذا مـــا الامر نازلني　　　يا ليته كان مصروفاً وقـــد وقعا
حـــتى اجليه قهـراً بعازمه　　　كما يجلي الدجى بـــدرٌ اذا طلعا
قوماً قتلت وقوماً قـــد نفيتهم　　　ساموا الخلاف بارض الغرب والبدعا
كلا جزيتهم صدعـــاً بصدعهم　　　وكل ذي عمل يُجزى بمـــا صنعا

ولا شك ان هذا الشعر يتصف بالفصاحة والقوة والصدق والاجادة. ومن شعر الامير الثاني ابو العباس يفخر بنفسه وحسبه :

أليس ابي وجـــدي أوطاني　　　وجدُّ ابي وعمـــاي الرقابا
ورثت الملك والسلطان عنهم　　　فصرت اعز من وطىء الترابا
وقـــد مني الخلائف واصطفوني　　　فمـــن مثلي قديماً وانتسابا
انا الملـــك الذي اسمـــو بنفسي　　　فابلغ بالسمو بهـــا السحابا
اذا نقبت عـــن كرمي ومجدي　　　وجدتني المُصاصة واللبـــابا
اظـــل عشيرتي بجناح عزي　　　وامنحها الكرامة والثـــوابا
واصطنع الرجـــال واطبّيهم　　　واغفر للمسيء اذا اتابـــا
واسمو بالخميس الى الاعـــادي　　　فاكسر بالعِقاب لها العُقابا
انا ابن الحرب ربتني وليـــداً　　　الى ان صرت ممتلئاً شبابـــا
لعمر ابيك ما ان عبت قومي　　　ومـــا اخشى بقومي ان أعابا
بنيت لهم مكارم باقيـــات　　　اذا مـــا صارت الدنيا خرابا

ومن مشاهير شعراء العصر الاغلبي بكر بن حماد الزناتي في القرن الثالث وقد نحى في شعره منحى الزهد والتأمل وكان قد ارتحل الى الشرق والتقى بأبي تمام ودعبل الخزاعي ثم عاد الى القيروان ، ومن اشعاره في الزهد قوله :

قف بالقبور فنادي الهامدين بها   من اعظم بليت فيها واجساد
أين البقاء ، وهذا الموت يطلبنا   هيهات هيهات يا بكر بن حماد
بينا ترى المرء في لهو وفي لعب   حتى تراه على نعش واعواد
هذا يباكر دنياه منغصة   فيها حزازات احشاء واكباد
فكلنا واقف منها على سفر   وكلنا ظاعن يحدو به الحادي
في كل يوم نرى نعشاً نشيعه   فرائح فارق الاحباب او غاد

اما القرن الرابع الهجري الذي كان الحكم فيه بأيدي الفاطميين فقد اتسعت فيه النهضة الادبية وبلغت شأواً بعيداً سواء في كثرة الادباء او في مدى ما وصلوا اليه من تفوق وبراعة في فن القول شعره ونثره على السواء . ومثلما رأينا العصر الاغلبي يبدأ بمؤسسه ابراهيم بن الاغلب نرى العصر الفاطمي يبدأ ايضاً بمؤسسه عبيدالله المهدي المتوفي سنة ٣٢٢ فقد وصف بأنه : « كان رجل الدنيا دهاء وعقلا ، متضلعاً في العلوم والآداب ، عارفاً بالسياسة وتدبير الملك » ومن شعره الذي كتبه الى بعض المخالفين المنشقين عليه قوله :

فإن تستقيموا أستقم لصلاحكم   وان تعدلوا عني أرَ قتلكم عدلا ا
واعلو بسيفي قاطعاً لسيوفكم   وادخلها عفواً واملؤها قتلا

ومن الشعراء الكبار الذين يباهي بهم الشعر المغربي في الدولة العبيدية الشاعر المشهور ابن هانىء الاندلسي ، وقد لقب بالاندلسي لانه اقام بعض الوقت في هذه البلاد اما ابوه فمن المهدية . وقد لازم المعز لدين الله الفاطمي واخلص له الود والمدح ، وكانت مكانته عنده كما كانت مكانة المتنبي عند

سيف الدولة . وقد خلد وقائعه العظيمة في اشعاره والهاد باسطوله العظيم . وستجد تفصيل ذلك في ترجمة حياته . اما ما يهمنا ان نذكره هنا ، فهو ان ابن هانىء قد غطى على جميع الشعراء المغاربة في عصره وبزهم في بلاط المعز وما اكثر ازدحامهم يومئذ على هذا البلاط ، كما غطى المتنبي وبز كل الشعراء في بلاط سيف الدولة .

ومن علماء اللغة في هـذا العصر نذكر ابا عبدالله محمد بن جعفر القيرواني وهو شيخ ابن رشيق وقـد نقل عنه ابن رشيق في كتابه العمدة كثيراً من دروسه ومحاضراته في اللغـة والادب . ومن هؤلاء ايضاً ابو عبدالله الخشني الضرير وهو ايضاً من شيوخ ابن رشيق وقـد قال عنه : انه كان مشهوراً بالنحو واللغة مفتقراً اليـه فيهما بصيراً بغيرهما من العلوم ، كما كان شاعراً مطبوعاً .

هـ — النقد الادبي :

لم تكن حركة الشعر قد نضجت وحدها في المغرب بل قد ظهر ونضج الى جانبها — وهذا من مستلزمات النهضـات الأدبية — حركة نقـد أدبي قوي بدأت أول أمرها نتفاً لا قواعد لها في القرن الثاني،ونضجت في القرن الثالث وبلغت أوج ازدهارها في القرن الرابع ومنتصف الخامس.ففي القرن الرابع مثلاً نجد عبد الكريم النهشلي ينقد الذوق الأدبي على النحو التالي :

« قد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد، فيحسن في وقت مـا لا يحسن في آخر ويستحسن عند أهل بـلد ما لا يستحسن عند أهل غيره . ونجـد الشعراء الحذاق تقابل كل زمان بما استجيد فيه وكثر استعماله عند أهله، بعد الا تخرج من حسن الاستواء وحد الاعتدال وجودة الصنعة . وربما استعملت في بلد الفاظ لا تستعمل كثيراً في غيره ، كاستعمال أهل البصرة بعض كلام

أهل فارس في أشعارهم ونوادر حكاياتهم » .

ومن ذلك ايضاً قول ابراهيم الحصري صاحب كتاب زهر الاداب عن النقد الأدبي وتقسيم الشعر من الناحية الفنية :

« الشعر مطبوع ومصنوع فالمطبوع الجيد الطبع مقبول في السمع، قريب المثال بعيد المنال ، أنيق الديباجة رقيق الزجاجة ، يدنو من فهم سامعه كدنوه من وهم صانعه . يطرد ماء البديع على جنباته ، ويجول رونق الحسن في صفحاته . وحمل الصانع شعره على الاكراه في التعمل بتنقيح المباني دون اصلاح المعاني ، يعفي اثار الصنعة ويطفي أنوار الصيغة ، ويخرجه الى فساد التعسف وقبح التكلف وأحسن ما أجري اليه وعوّل عليه هو التوسط بين الحالين والمنزلة بين المنزلتين من الطبع والصنعة » .

ولعل اعظم حدث في تاريخ النقد الأدبي في العربية هو ظهور كتاب العمدة لابن رشيق، ويكفي للحكم على هذا الكتاب واعطاء فكرة عن قيمته الأدبية الرفيعة أن ابن خلدون قد قال عنه: « هو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة – يعني النقد – وأعطاها حقها ، ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله » . وكتاب العمدة نقد أدبي صميم تناول فيه مؤلفه نقد الشعر عامة ونقد عدد من الشعراء بصفة خاصة .

وليس ابن رشيق هو الوحيد من بين أدباء المغرب الذين اهتموا بهذه الناحية الهامة في أدب اللغة العربية ونعني بها النقد الادبي بل كان هناك ايضاً زميله ابن شرف الذي يعد من ادباء المغرب الكبار قد ألف «رسائل الانتقاد» وهو عبارة عن مقامات يتحدث فيها بطلها عن الشعراء من المقدمين والمحدثين. فيصف أحدهم في قول قصير ويبين مزاياه وعيوبه في ايجاز. ولكن ابن شرف فضلاً عن اسلوبه الذي هو دون اسلوب ابن رشيق لم يصل الى منزلة ابن رشيق في النقد .

فاذا وصلنا الى الدولة الصنهاجية . وهي الدولة التي ندرس شخصيات من عصرها فقد وصلنا الى ذروة الازدهار الذي بلغته الحضارة والثقافة العربية في هذه البلاد وقد وصف أحمد أمين عصر الصنهاجيين بقوله : « وفي الدولة الصنهاجية كان العمران قد استحكم والصلة بين المغرب وبين الاندلس ومصر والعالم الاسلامي كله قد تمكنت والحضارة قد ازدهرت[1] » أما ابن خلدون الذي كان أقرب لهذا العصر من المرحوم أحمد أمين فقد وصف عصر الصنهاجيين وملكهم بقوله « كان ملكهم اضخم ملك عرف للبربر بافريقية ، واترفه وابذخه » .

و – العلوم والفنون :

الواقع ان الباحث لا يستطيع ان يتحرى الحقائق بدقة حول مدى تقدم العلوم والفنون في هذا العصر ببلاد المغرب بوجه عام ، ذلك ان الفتن المتتالية وخاصة غارات الهلاليين ثم النورمانيين في نهاية القرن الخامس الهجري ثم الاسبان في القرن العاشر وما قام به هؤلاء الاخيرون بصفة خاصة من اتلاف لذخائر الكتب ، قد حرمتنا كثيراً من كنوز المراجع وما ابقاه المغاربة من تراث علمي رائع جليل .

والمحقق على اية حال هو ان الاغالبة قد وضعوا اسس نهضة علمية قوية بتأسيسهم « لبيت الحكمة » في القيروان على غرار ما وقع في بغداد ، وقد جلبوا اليها عدداً كبيراً من العلماء والاطباء والفلكيين والموسيقيين من المشرق .

ومن اشهر الاطباء القادمين من الشرق نذكر اسحاق بن عمران اليهودي

---

(١) ظهر الاسلام ج ٣ ص ٣٠٠ .

البغدادي في اواخر القرن الثالث، ومحمد بن فرج البغدادي الذي كان متخصصاً في الفنون الجميلة والصناعات المستظرفة[1] .

ثم انتشرت هذه العلوم شيئاً فشيئاً، حتى اذا كان العصر الصنهاجي بلغت اقصى ازدهارها وانتشارها في كامل بلاد المغرب والاندلس ، وقد قال ابن خلدون في هذا الصدد :

« واستبحر عمران القيروان وقرطبة ، وكان فيهما للعلوم والصنائع أسواق نافقة وبحور زاخرة . ورسخ فيهما التعليم لامتداد عصورهما ، وما كان فيهما من الحضارة » .

وكان انتشار التعليم شائعاً بين الرجال والنساء ، وقد اشتهر عـــدد من النساء في الفقه ، منهن خديجة بنت سحنون كما كان منهن اديبات مثل مهرية بنت الحسن بن غلبون[2] .

وفي الجملة فان حركة العلوم قد كانت انشط في الطب والتاريخ وفنون الصناعات العملية منها في الرياضيات والفلسفة .

وقد قيل ان ابن الجزار الف وحده ما يقرب من ثلاثين كتابـاً في الطب منها كتاب « طب الفقراء والمساكين » وكتاب «زاد المسافر وقوت الحاضر» وكتاب « الدم والتحذير من اخراجه لغير حاجة » .

كما الف كتباً اخرى في التربية والصحة مثل كتاب « سياسة الصبيان وتدبيرهم» والف ايضاً في التاريخ مصنفات منها : «التعريف بصحيح التاريخ» ومنها « اخبار الدولة الفاطمية » .

---

(١) بساط العقيق ص ٣٥ .
(٢) بساط العقيق ص ٣٦ .

وقد تُرجم عدد من كتبه في الطب الى اللغة اللاتينية وظلت معتمــدة في جامعات اوروبا العلمية الى عصر متأخر .

ومن علماء هذا العصر الذين اشتهروا في الهندسة والرياضيــات ابو الطيب عبد المنعم بن محمد الكندي المتوفي سنة ٤٣٥ ﻫ وقد قال عنـه القاضي عياض انه « كان دبر جلب ماء البحر من الساحل الى القيروان وسوقه خليجــا من هناك بنظر هندسي ظهر له ، ولكن اخترمته المنية قبل انفــاذ رأيه فيه ، وظهور ما دبر منه » . وقال عنه عياض ايضاً : « ان له عــدة تآليف في فنون شتى الا انه مات ولم يهذبها[1] » .

وهذا يعطينا فكرة عن مبلغ ما وصل اليه ازدهار العلوم وطموح العلماء بافريقية حتى اصبح العلماء يفكرون في مثل هذه المشاريع الضخمــة ووضع التصاميم الهندسية لها ، مما تعجز بعض الدول في العصر الحاضر عن التفكير فيه رغم تقدم العلوم العصرية .

ولا شك ان تفكير هذا المهندس المغربي ، وطب ابن الجزار واضرابهما من العلماء يعطي فكرة واضحة عما كان يمكن ان تصل اليه الحضارة العلميــة في بلاد المغرب لو كتب لهذه البلاد ان تتمتع بحقبة طويلة من الاستقرار والامن اللذين هما اساس كل عمران ورخاء وشرط كل نهضة في العلوم والآداب .

ورغم الفتن المتتالية ، والاضطرابات الداخلية والهجومات الخارجية التي اصابت بلاد المغرب خاصة والعالم العربي بوجه عام،فان القرن الخامس الهجري — الذي نؤرخ حياته الأدبية بافريقية — قــد بلغت الثقافة العربيــة والعلوم العملية فيه ابعد مدى من الازدهار والانتشار ، خاصــــة في حوض البحر

---

(١) مجلة الثريا التونسية ص ٢ ع ٣ مارس ١٩٤٥ .

المتوسط وعلى كافة شواطئه وجزره التي كانت كلها عربية واقعة تحت تأثير الثقافة العربية الممتدة اليها من سواحل المغرب العربي .

وهذا الكاتب الفرنسي « ماكس فانتاجو » يصف لنا مدى هذا الانتشار وقوة ذلك الازدهار ، في كتابه « المعجزة العربية » فيقول :

« اما فيما يتعلق بالسلطان الروحي فانــه لم يصمد طويلا بعد الانهيـــار السياسي ، من ذلك ان الامراء الامويين في قرطبة وجــدوا انفسهم جديرين بحمل لقب الخليفة ، ثم اندلعت بين القبائل ثورة هيأتها اسرة عربية تزعم انها تنتسب الى فاطمة ابنة النبي (صلى الله عليــه وسلم) وسميت من اجل ذلك بالفاطمية . وطردت الامراء الاغالبة من القيروان واسست فيها خلافة شيعية كانت في الواقع اهانة كبرى للعباسيين . وقد قضى الفاطميون على العباسيين بعد ذلك حين طردوا حماتهم من مصر ولم يبق من هؤلاء في الحقيقـــة غير خلفاء محليين خاضعين لوصاية ايرانية حقيقية .

« ومن الممكن الظن بأن هذه التجزئة التي جعلت الامبراطورية العربيـة دولاً متمايزة متنافسة ان لم تكن متعادية ، ستسيء الى خصوبة النهضـــة التي اطلقنا عليها اسم « المعجزة العربية ». انه من الصعب ان يصف المؤرخ تجزؤ امبراطورية عظيمة دون ان يستعمل مرغماً لغة تثير في ذهن القــارىء صورة جسد متعفن ممزق الاعضاء. واذا كانت هذه الصورة صادقة في بعض الاوقات فهي في بعضها الآخر خادعة كاذبة. ومن الخير ان نستعمل التعابير البيولوجية حين نتحدث عن تجزؤ الامبراطورية العباسية . ان اسبانيا ومصر وفارس لم تنفصل عن الامبراطورية كما تنفصل الاعضاء عن الجسد بل هي ثمرات ناضجة سقطت من شجرة صحيحة فوزعت بذورها حولها .

« لقد افاد هذا التجزؤ «المعجزة العربية» وكما ان موت الاسكندر سبب نشوء الممالك التي اشاعت الحضارة الهلينية فان نشوء المقاطعـــات التي كانت

تابعة لمركز الخلافة احدث عواصم تكونت فيها بلاطات رائعة غنية تمركزت انظار ملوكها في بغداد جاعلين منها نموذجاً يقلدونه ويحذون حذوه . كان لهذا التجزؤ خير أثر في تطور الحضارة ونجاحها . كما امن انتشار المعارف اليونانية والاعمال العربية بسرعة غير منتظرة . وبفضل هذا الحدث اصبحت تلك المعارف والاعمال معروفة مفهومة منذ القرن العاشر الميلادي بين القوقاز والبيريليه ومن بخارى حتى قرطبة .

« ومن الحق ان نعترف بأن ضياع الامبراطورية لم يسوء الى بغداد الا قليلاً فاذا خسرت هذه المدينة لقبها كعاصمة سياسية فقد اكتسبت بفضل «المعجزة العربية » لقب العاصمة الفكرية ، ولئن لم تعد « روما » للمسلمين فقد اصبحت « اثينا » لهم ، وهذا في الحقيقة اروع وادعى الى الغبطة .

« كانت المعارف العربية تنتشر في الوقت نفسه في الطرف الآخر من العالم المتمدين عبر اسبانيا بفضل بلاط الامراء الامويين . وبالرغم من طابع الحذر الذي اتسمت به علاقات هؤلاء بالخلفاء العباسيين فقد استقبلوا ترجمات مؤلفات ارسطو منهم بشغف وحماسة وكذلك مؤلفات اقليدس وارخميدس وبطليموس الى جانب الآثار الرائعة للرياضيين والفلكيين العرب في بغداد .

« وان ما عرفناه من انهم جمعوا اوائل القرن العاشر اكثر من ٤٠٠،٠٠٠ مجلد والكتب حينئذ نادرة وثمينة ، يساعدنا على تصور المجهود الجبار والارادة العنيدة اللذين ساعدا على جمعها .

« وبفضل هذه المكتبة اصبحت قرطبة ، كبخارى ، مركزاً فكرياً مشهوراً اجتمع فيه الطلاب العرب الاوروبيون وزارها عدد من المسافرين الغربيين الذين اعتادوا رؤية القرى الهزيلة في بلاد الغال وجرمانيا وكانوا يجهلون روعة بغداد ، بل وعظمة بيزنطة ، هؤلاء جميعاً اصابهم ذهول حين رأوا الثلاثمائة مسجد في قرطبة ، فسموها « لؤلؤة العالم » .

« والواقع ان قرطبة سنة ٩٢٩ م ، والتي لم يقل عدد سكانها عن نصف

مليون قد اعتبرت نفسها منافسه لبغداد ، واتاحت لسلطانهـا القوي الامير عبد الرحمن الثالث الجرأة على المناداة بنفسه خليفة للمسلمين .

« كانت مصر آخر مناطق الامبراطورية العباسية تمتعاً بالاستقلال التام . ولكنها لم تتأخر ، وهي ذات التربة الخصبة ، عن امتاع القاهرة عاصمتهـا الشابة بكل ثروتها فسمح لها ذلك بمنافسة بغداد وقرطبة .

« لقد اسس الخلفاء الفاطميون فيالقاهرة بعد سنوات قليلة من استقرارهم فيها جامعة هي جامعة الازهر (٩٧٨ م) وما تزال هذه الجامعة قائمة حتى اليوم ومن الواجب اعتبارها سيدة الجامعات المعـاصرة لولا خطأ ارتكبـه بعضهم ، كما بنوا في الوقت نفسه مرقباً حقق فيه ابن يونس الفلكي نجاحـات هامة في علم المثلثات بالاضافة الى مكتشفات فلكية قيمة ، وقد اجتذبوا الى مؤسساتهم العلماء المشهورين فجاء ابن الهيثم ، العالم الطبيعي ، وهو من مواليد البصرة ، الى القاهرة ليدرس فيهـا زيادات نهر النيل ، الذي فكر بتنظيم سيره . ولما استقر به المقام أدرك بثاقب نظره استحالة المهمة وبقي في مصر وتابع دراساته في الهندسة وكتب مؤلفه في علم البصريات الذي اشتمل لأول مرة على وصف علمي للانعكاس الضوئي » .

وهكذا « كانت المعجزة العربية تنتشر من الشرق الى الغرب ، من حلب الى بخارى ، من القاهرة الى قرطبة ، بفضل انقسام الامبراطورية . فأسست في كل مكان مدارس وجامعات ومكتبات، شاعت فيهـا حيوية مثيرة ، وفي كل مكان ظهرت الرغبة في التثقف واكتشاف الحقيقة كما كان الامر في بغداد قبل ذلك بقرن واحد، وفي كل مكان انتشرت وصفات الأطباء والكيميائيين وخصائص الابرة المغنطة واسرار صانعي الورق وأساليب صهر الحديد ، ثم اجتازت المتوسط من اقصـاه الى اقصاه بواسطة صناع دمشق وحملت معهـا الى سكان طليطلة ثروة كبيرة . وتجاوز اشعاع هذه الحضارة العربية حدود المناطق التي كان يشرف عليهـا العرب . ومنذ توحدت شواطىء المتوسط

الشرقية والجنوبية والغربية تحت سلطان واحد بالاضافة الى اكثر الجزر التي تغسلها امواج هذا البحر ، صقلية ، الباليار الخ ... ظهرت يقظة تجـــارية حقيقية سمحت للدينار الذهبي والثقـافة العربية بأن يسيرا معاً طوال الطرق التجارية الجديدة بعيداً عن العالم الاسلامي . فأصبح المتوسط الذي كان فيما مضى لاتينياً ، بحراً عربياً حقيقياً ، واصبحت العربيـة في كل شواطئه لغة دولية للتجارة والعلم . اما في الشعر فقد كانت لغة الطراز الاخير ، كما أعلن علماء الجمال الاندلسيون استغنـاءهم طوعاً عن الادب اللاتيني الفقير من اجل « بضعة أبيـــات من الشعر العربي » كما رثي بعض من الأساقفـة الكاثوليك يتركون اللاتينية وهي لغة الدين المسيحية الغربية ليكتبوا باللغة العربية .

« وسكن في ساليرنو من ايطاليا ومونبيليه من فرنسا أطباء عرب ويهود أتوا من اسبانيا وأسسوا في هاتين المدينتين مدارس طبيـة قدر لها ان تلعب فيما بعد دوراً مهماً في تاريخ الحضـارة بعد ان انتقلت نقطة ارتكاز العـــالم الفكري من الشرق الى الغرب[١] » .

---

(١) المعجزة العربية ص ٦٢ - ٦٧ .

٥ ـ الشعر والنثر

استعرضنا فيما سبق تطور الحيـاة العلمية اجمالاً في المغرب خلال العصور السياسية المختلفة، ونتحدث الآن عن خصائص الشعر والنثر في عصر الازدهار الادبي .

أ — الشعر :

كان لبذخ الدولة الفاطمية ثم الصنهاجية دو كبير في طبع الشعر وخاصة المدح بطابع التأنق الذي يبلغ احياناً درجة التصنع البارز والمبالغة المكشوفة وان كان هذا الشعر لا يخلو من رقة وسلاسة تغطي بعض الشيء فقره في العمق الفكري والتجربة النفسية .

لهذا يمكن ان نحصر طابع الشعر في غلبة الصنعة عليه والميل في الابتكار الى التفنن اللفظي والجرس الموسيقي اكثر من الغوص على المعـاني وتعمق الافكار . ويتمثل هـذا في كثرة استعمال البديع والاستعارات ، كما تتمثل الرقة في هجر الكلمات الغريبة هجراً يكاد يكون تاماً .

هذا من حيث الاسلوب الفني للشعر ، اما من حيث موضوعه فان الوصف

يأتي في الدرجة الثانية بعد المدح عند الشعراء ، بل كثيراً مـــا نجد الشعراء يسخرونه للتنوع في المـدح او في الغزل ، وخاصة وصف المعارك والاساطيل العربية ومظاهر البذخ التي كان يعيشها الامراء ويشاركهم فيها الشعراء .

ويتناول الوصف كذلك مظاهر الطبيعة في البر والبحر ، ويتحدث عـن الزهور والفواكه والحيوان كما يتناول الحياة الاجتماعية كمجالس اللهو ومشاكل الجيران .

كذلك ظهر موضوع جديد بعد خراب القيروان وهو رثاء هـذه المدينة ووصف ما كان لها من حضارة وعمران ، واظهار الشوق والحنين اليها .

والى جانب الشعراء الكبار امثال ابن هانىء وابن رشيق وابن شرف ، وعلي الايادي والحصري الضرير ، الذين تغني شهرتهم عن الاستشهـاد بشعرهم نذكر هنا نماذج قليلة من شعر بعض الشعراء المغمورين في هذا العصر لنكوّن فكرة صحيحة بقدر الامكان عن هذا الشعر وقيمه الفنية والموضوعية .

فنجد مثلا ابن ابي زيد القيرواني الذي اشتهر بالفقه، ولكنه اهتم بالادب ايضاً فترك آثاراً في النثر والشعر منها قوله في الحكمة :

تأبى قلوب قلوب قوم	وما لها عندها ذنوب
وتصطفي انفس نفوسا	وما لها عندها نصيب
ما ذاك الا لمضمرات	اضمرها الشاهد الرقيب

فانت ترى مدى ما في هذه الابيات من برودة شعرية ، وتشبع بالفقـه رغم المحسنات البديعية الفاشلة .

ونجد ابن عبدون الوراق وهو شاعر تغلب عليه الصنعة بصورة فاحشة ، لم يستطع ان يتخلص منها حتى في حال حزنه ، كقوله يرثي زوجته :

اسكنته سكني ورحت كأنني ... في الارض لا بشراً ارى من بعده
طال انتظاري للهدوء وليس لي ... جفن يطابق جفنه في رده
وجهدت ان ابكي فلم اجد البكا ... ماء بخدي والتراب بخده

فأنت تلاحظ مثلاً ما في عجز البيت الاخير من تصنع في تكرار لفظة « خد » عن قصد ولهو فني لا يتلاءم مع موقف الحزن .

ومن هؤلاء الشعراء ايضاً محرز بن خلف الذي عالج موضوعاً اجتماعياً هاماً وهو الظلم فشغله التزويق اللفظي عن التعمق في افكار الموضوع ، كقوله :

... فكم ذا رأينا ظالماً متجبراً ... يرى النجم تيهاً تحت ظل ركابه
فلما تمادى واستطال بجوره ... اناخت صروف الحادثات ببابه
فلا فضة تحميه عند انفضاضه ... ولا ذهب يحميه عند ذهابه

على ان لابن خلف قصائد لا تخلو من جودة كوصفه لاطلال قرطاجنة بقوله مخاطباً آثارها :

تصفق فيك الريح من كل جانب ... وفرق منك الدهر ما قد تجمعا
فمزق ذاك الشمل بعد اجتماعه ... فلله دهر ما اغر وافجعا

ثم يقول عن بناتها وساكنيها :

... فلم يغن عنهم ما بنوه وشيدوا ... وما منعوا الدهر مع من تمتعا
وساروا الى من سار من كان قبلهم ... فيا لفراق القوم ما كان اسرعا
وقد وسدوا بعد الحرير جنادلا ... ولم يستطيعوا للحوادث مدفعا

ومنهم ابو اسحاق ابراهيم بن القاسم ويعرف بالكاتب الرقيق ، وكان شاعراً مجيداً رغم انه لم ينل من الشهرة ما ناله كبار الشعراء في عصره ، فمن

شعره يصف الامير باديس وهو في معركة من معاركه الحربية :

... والخيل تعبر بالهامات خائضة	من سافح الدم مجرى قاني الفلق
والبيض في ظلمات النقع بارقة	مثل النجوم تهاوت في دجى الغسق
وقد بدا معلما باديس مشتهرا	كالشمس في الجو لا تخفى عن الحدق
تعلو عمامته الحمراء غرّته	كأنه قمر في حمرة الشفق

وانت ترى ما في هذه اللوحة من انسجام في الالوان اجاد الشاعر ابرازها في صورة من الجمال الرهيب . ويكفي هذا الشاعر ما اطلقه ابن رشيق على شعره من حكم صائب عندما قال : « .. هو شاعر سهل الكلام محكمه ، لطيف الطبع قويه » .

ب – النثر :

يمكن ان تقسم النثر في هذا العصر كغيره من العصور الى ثلاثة انواع رئيسية :

١ – النثر الاداري الذي يستعمل في مراسلات الدولة واجهزة القضاء والجيش ... وأحسن من يمثل هذا النوع من النثر في عصرنا هذا هو علي بن أبي الرجال الذي كان رئيساً لقلم المراسلات في دولة المعز بن باديس[١] ومحمد ابن عطية بن حيان الكاتب .

وهذا النوع من النثر لم يصلنا منه شيء كثير ، لان المؤرخين – كما يبدو – لم يعنوا به ، رغم ما له من اهمية ، خاصة في العصر الصنهاجي ، وبعده . وقد ظل مستعملاً في صقلية وجنوب ايطاليا حتى بعد زوال الحكم العربي منها ، اذ بقيت العربية هي اللغة الادارية في صقلية وجنوب ايطاليا اكثر من قرن .

---

(١) بساط العقيق ص ٣٨ ،

٢ — اما النوع الثاني من النثر فهو النثر العلمي ونعني بـه ما كان مستعملا في التأليف كالقصة وفنون اللغة والطب والتاريخ والجغرافية الخ . ومن ابرز كتاب هـذا النوع نذكر ابن الجزار الطبيب وابن ابي زيد الفقيه ، وابراهيم الرقيق في التاريخ ، وابا العرب التميمي المؤرخ النسابة .

٣ — اما النوع الثالث من النثر فهو النثر الادبي الذي يهمنا في هذا الكتاب اكثر من سابقيه ، فقد كان في هذا العصر مطبوعاً بطابع الصنعة عند اغلبية الكتاب مهما كانت طبقتهم ، ولم يسلم منه الا ابن رشيق ، امـا معاصروه الآخرون فقد جرفهم هـــذا التيار الذي كانوا يرون فيه الانموذج الراقي في اساليب الكتابة والبلاغة . وكأنهم اتخذوا من اسلوب اصحاب المقامات في المشرق رائداً لهم في النثر الادبي .

ومن مظاهر الصنعة الشائعـــة عندهم ، التزام السجع ، والاكثار من الاستعارات وانواع المجاز ، والتأنق اللفظي الخ .

وطبقات الكتاب في هذا العصر كثيرة متعددة ، كتعدد طبقات الشعراء ولا شك ان ابن رشيق يأتي في طليعة الطبقة الاولى ويليه ابن شرف ثم ابو اسحاق الحصري ، وتليهم طبقة اخرى تتكون من عـدد كبير من الكتاب الذين لم ينالوا من الشهرة مـا نالته الطبقة الاولى . ونذكر في طليعة الطبقة الثانية عبد الكريم النهشلي الذي تتلمذ عليـــه ابن رشيق في النقد الادبي ، وابن الربيب المعروف بالقاضي التاهرتي . ومن المفيد ان نأتي هنا ببعض الفقرات من رسالة بعث بها التاهرتي الى صديق له في الاندلس ، لانها تعطينا صورة عن نوع من المراسلات التي كان يتبادلها الادباء في ذلك العصر ، ونوع الشواغل الفكرية التي كانت تدور عليها هذه الرسائل :

« ... وعلماؤكم مع استظهارهم على العلوم ، كل امرىء منهم قائم في ظله لا يـبرح ، وراتب على كعبه لا يتزحزح ، يخاف ان صنف ان يعنف ، وان

الف ان يخالف ولا يؤلف ، لم يتعب منهم احد نفساً ، في جمع فضائل اهـل بلاده . على انه لو اطلق ما عقل الاغفال من لسانه، وبسط ما قبض الاهمال من بيانه، لوجد للقول مساغاً ولم تضق عليه المسالك ولم تخرج به المذاهب.. فاذا اخترمته منيته دفن معه ادبه وعلمه ، فمات ذكره وانقطع خبره » [1].

ومن هذه الطبقة نذكر الامام ابن القزاز محمد بن جعفر صاحب المعجم الكبير المسمى « الجامع في اللغة » وهو يعتبر من امهات كتب اللغة ، وكان القزاز استاذاً لابن رشيق وابن شرف وطبقتهما ، وترك تأثـيراً كبيراً في شخصية ابن رشيق خاصة ، وهو كثير الاستشهاد باقواله في « العمدة » .

ومن هـذه الطبقة ايضاً ، ابن فضال المجاشعي وعلي بن القطاع الصقلي وعثمان بن علي السارقوسي ، وغيرهم كثيرون .

(١) المنتخب المدرسي ص ٦٥

٦ - مميزات الادب

في المغرب والاندلس

تمهيد :

حاولنا ان نحصر بحثنا لحد الآن في ثقافة المغرب وتاريخه الادبي ، لان هذا الموضوع قد اهمله مؤرخو الادب العربي في العصر الحديث ، وخاصة الكتب المدرسية الخاصة به ، والتي وردت علينا من المشرق ، وهي المستعملة وحدها في مدارسنا وعليها فقط يعتمد معلمو الأدب العربي واساتذته

ولهذا سنتحدث في هذا الفصل عن عنصر جديد في تاريخ الأدب المغربي وهو مميزات الثقافة والأدب في الأندلس والمغرب ، باعتبارهما وحدة ثقافية متشابهة ذات طابع خاص ، يختلف بعض الشيء عن طابع الثقافة والأدب في المشرق .

ونسارع الى القول بانه لا توجد فروق اساسية بين المغرب والمشرق في الثقافة والأدب ، وكل مـا هنالك هو اختلاف في الالوان زاد في تنويع الأدب العربي وتوسيع ثروته .

أ - عناصر التشابه :

١ - كان الأساس الأول للثقافة والادب في المغرب والأندلس هو القرآن وعلوم الدين واللغة والأدب الجاهلي تماماً كما كان الامر في المشرق .

ثم ان العنصر البشري الذي كون الأدب في المشرق كان هو نفسه الذي كونه في المغرب والاندلس ، ونحن نعلم أن الجيوش العربية التي فتحت المغرب والاندلس قد استقرت فيها . وما لبثت القبائل العربية ان توافـدت على المغرب والاندلس وظلت الهجرة أمامها مفتوحة طوال القرون الخمسة الاولى للاسلام ، وكان في طليعة الوافدين من قبائل عدنان وربيعـة وغطفان وتميم وكنانة وقيس وتغلب . وكانت أغلبية العرب الوافدين عدنانيين .

٢ - كانت بغداد طيلة القرون الثلاثة الاولى مسيطرة بثقافتها على العـالم العربي شرقيه وغربيه على السواء ، وكانت ثقافتها خلال المـدة نفسها تشع على مختلف الاقطار مهما كانت بعيدة ، فتستورد اليها العلماء[١] ويقصدهـا طلاب المعرفة من كل مكان ، فكان هذا عاملاً آخر لوحدة الثقافة والادب في جميع الاقاليم من الوطن العربي .

ولكن بعد هذه الفترة ضعفت مركزية بغداد الثقافية كنتيجة لتفككها السياسي وظهرت عواصم اخرى تنازعها هذه المركزية .

وما كاد ينتهي القرن الرابع حتى كانت قرطبة في الاندلس والقيروان في افريقية مركزين عظيمين للثقافة العربية ، يقومان بنفس الدور الذي قامت به بغداد من قبل .

---

(١) انظر ما فعله الاغالبة مثلاً ، فيما سبق .

وفي هـــذا الصدد يقول : « دي بور T. J. Deboer » في كتابه « تاريخ الفلسفة في الاسلام » .

« وكانت عناية أهل المغرب [1] محصورة في الرياضيات والعـــلم الطبيعي والتنجيم والطب كما كان الحال في المشرق اول الامر ، وكان الناس يدرسون الشعر والتاريخ والجغرافية بشغف عظيم ، ولم تكن موجة التفلسف الاجوف قد افسدت عقول اهل المغرب » [2] .

٣ — ومن هـــذا يتبين ان العناصر الاساسية الاولى التي كونت الثقافة العربية وخاصة الادب العربي في المشرق والمغرب قـد كانت واحدة ، وهي العنصر الديني والعنصر البشري والعنصر السياسي والعنصر اللغوي، واذن فلا غرابة في تشابه وجوه الثقافة والادب في المشرق والمغرب ، ذلك ان المثال المحتذى قد كان واحداً هنا وهناك ، فهو بمثابة الشجرة اصلها واحد فـــلا يمكن ان تختلف طبيعة ثمارها وان اختلفت الوانها .

ومن المفيد ان نعيد هنا فقرة من كلام « ماكس فانتاجو » كنا قـــد استشهدنا بها سابقاً ، لما تلقيه من ضوء كاشف لهذه النقطة :

« ... انه من الصعب ان يصف المؤرخ تجزؤ امبراطورية عظيمة دون ان يستعمل مرغماً لغة تثير في ذهن القارىء صورة جسد متعفن ممزق الاعضاء واذا كانت هـــذه الصورة صادقة في بعض الاوقات فهي في بعضها الآخر خادعة كاذبة . ومن الخير ان نستعمل التعابير البيولوجية حين نتحدث عن تجزؤ الامبراطورية العباسية ، ان اسبانيا ومصر وفارس لم تنفصل عن هـــذه الامبراطورية كما تنفصل الاعضاء عن الجسد ، بـل هي ثمرات ناضجة سقطت

(١) يعنى بالمغرب الاندلس ايضاً .
(٢) ص ٢٧٨ .

من شجرة صحيحة فوزعت بذورها حولها » .

ومن هنا نرى ان من ضعف النظر الحديث عـن تقليد المغرب للمشرق ، وهو حديث افاض فيه القدماء والمعاصرون من مؤرخي الادب العربي ، حين رأوا في اوجه التشابه هـذه مجرد تقليد ومحاكاة . فالقدماء قالوا عن العقد الفريد حين اطلعوا عليه كلمتهم المشهورة « هذه بضاعتنا ردت الينا » وفاتهم ان الكتاب ليس الا ثمرة من تلك الثمرات التي اعطتها شجرة واحدة .

اما المعاصرون فقد ساروا على هذا المنوال ، فقلدوا القدماء وقالوا بقولهم ولم يحـاولوا ان يبحثوا القضية في ضوء طرائق التحليل العلمي الحديث . ولا حاجة للاستشهاد بقولهم هنا ، فهو مبثوث في كتب تاريخ الادب الكثيرة .

المميزات :

هناك ظاهرة بارزة في الحياة الدينية والاجتماعية تميز بها المغرب عن المشرق وهي ظاهرة التصلب الديني والاعتدال فيما يتصل بحياة اللهو والمجون وخاصة عند الجماهير .

كما نجد الفقهاء انفسهم اكثر تشبثاً والتزاماً واحياناً تزمتاً في الحياة الدينية من زملائهم في المشرق الذين كانوا اكثر تسامحاً في الدين بوجه عـام ، وأقل سخطاً على اللهو والمجون .

وكانت للفقهاء دائماً سلطة شعبية عظيمة ، ولهذا كان في امكانهم دائماً ان يثيروا سخط الجماهير على كل من يحاول التهتك الساخر من الادباء ، وكذلك ضد كل من يحاول ان يظهر افكاره من الفلاسفة ، وكان لهذا تأثيره الكبير في جعل الادب لا ينطلق الا في آفاق محدودة ، اما بالنسبة للفلسفة فقد قضي

عليها في اغلب العصور ، وكانت الفلسفة دائمـــاً في المغرب والاندلس تعتبر مرادفة للالحاد .

وكان ولاة الامور دائماً يصانعون الرأي العام ، ويسلطون اضطهادهم على الفلاسفة والمفكرين الاحرار، ومن أعظم احداث الصراع الفكري في المغرب ما حدث بين ابن خلدون وابن عرفة ، فقد كان الاول يمثل النزعة التحريرية في التفكير ويعتمد على العقل للتشبعه بالروح الفلسفي، فلا يسلم بالخرافات ولا يقيم وزنا لمقاييس الفقهاء واسلوب تفكيرهم ، بينما كان ابن عرفــة يمثل النزعة الفقهية الصميمة بما فيها من تشبث بالطرائق الفقهية الضيقة . وقد كانت هذه الخصومة سبباً رئيسياً من اسباب هجرة ابن خلدون من تونس الى مصر .

ومن قبل ابن خلدون كان ابن هانيء قد لقي اتعس مصير في الاندلس، اما ابن رشد فقد اخرجت كتبه الى الشارع واحرقت امام عينيه . وكان هـــذا الاضطهاد يلاحق المثقفين الاحرار حتى وهم وزراء ، ومن هؤلاء ابن زيدون وابن الخطيب .

هذا فيما يتصل بالحياة الدينية وتأثيرها على التفكير الفلسفي وما ادى اليه ذلك من سطحية في الادب بالمغرب والاندلس معاً ، رغم مـــا في هذا الادب من جمال ظاهري وديباجة مشرقة .

اما ناحية الاعتدال الاجتماعي ، فنعني بها ان المغرب والاندلس رغم مـــا وصل اليه العمران والحضارة فيهما من بذخ فان التهتك الساخر قد بقيت دائرته محدودة بالنسبة لما كان عليه في المشرق . على ان هذا الاعتدال قد كان يتمثل بالخصوص في تحفظ الادباء من ان يمسوا به جوهر العقيدة الدينية . ولعل هذا هو السبب في عدم وجود تيار من الزهد الفلسفي في الادب ، كما وجـــد في بغداد ليقاوم تيار التهتك .

وفي هذا المعنى يقول المستشرق « دي بور » :

« ان الشعراء كانوا يذكرون في قصائدهم أموراً ثلاثة : الخمر ، والمرأة ، والغناء ، أما التفكير الاباحي الماجن ، والزهد الكئيب من جهة أخرى فلم يكن يعبر عنها[1] » .

هذه نظرة لا بد منها لكي نفهم مميزات الأدب في المغرب والاندلس من حيث ضعف التفكير الفلسفي وعمق المعاني فيه .

واذا كان هذا عنصر ضعف في الأدب المغربي والاندلسي بوجه عام ، فقد استطاع ان يعوضه بعنصر قوةوهو عنصر الجمال في الموسيقى والخيال والصور المتنوعة التي استمدها الشعراء من بيئتهم الطبيعية وما احتوت عليه من تنوع واسع في الجمال .

فكان من اظهر المميزات في شعر المغرب والأندلس :

١ — جمال الصيغ اللفظية وأناقتها ، وقد برع فيها بالخصوص ابن هانىء وابن زيدون وابن حمديس وابن خفاجة وابن عبدون ولسان الدين بن الخطيب ، ويرجع ولع هؤلاء بهذا الجمال الى جمال البلاد الاندلسية والمغربية، وافتتانهم به بل واعتزازهم ايضاً .

وقد كانت تشبيهاتهم وصورهم واخيلتهم لا تخلو أبداً من ذكر اخضرار الاشجار وتدفق الماء مضيفين الى ذلك وصف البذخ المنزلي بما فيه من جمال لا يقل عن جمال الطبيعة ، كقول ابن خفاجة يصف نهراً :

قد رق حتى ظن قرصاً مفرغاً — من فضة في بردة خضراء
وغدت تحف به الغصون كأنها — هدب يحف بمقلة زرقاء
والريح تعبث بالغصون وقد جرى — ذهب الاصيل على لجين الماء

وقد افاض الاندلسيون والمغاربة في وصف مظاهر الجمال في بلادهم حتى

(١) تاريخ الفلسفة في الاسلام ص ٢٧٨ .

كان هذا الباب اكبر جزء من شعرهم بعد المدح ، وقد وصفوا به الجبـــال والاشجار،والرياض والبساتين والانهار والبحيرات والابنية والقصور والملابس والحلى، ومجالس اللهو والغناء وكافة مظاهر حياتهم، ولهذا يكتسي هذا الشعر اهمية تاريخية الى جانب قيمته الادبية.

٢ – الاكثار من رثاء الممالك والدول التي تذهب بها الانقلابات المتكررة وفي هذا الباب تظهر قوة خاصة في الشعر المغربي والأندلسي،وهي قوة التأثر العميق الصادق . ودواوين الشعر مملوءة بهـــذا النوع وكله من عيون الشعر وحسان القصائد .

وفي طليعة هؤلاء ابن رشيق وابن شرف في رثاء القيروان وابن حمديس في رثاء صقلية وابن الرندي في رثاء الاندلس .

٣ – براعة شعراء المغرب والاندلس في الملاءمـــة بين مواضيع القصيدة ووزنها وهو ركن أساسي من أركان الجمال في الشعر، وقد عني به نقاد الادب العربي منذ عهد ابن قتيبة ، ولكن شعراء المشرق لم يوفقوا فيه مثل شعراء المغرب والأندلس .

٤ – تخلف شعراء المغرب والأندلس عن اللحاق بشعراء المشرق في قوة الأفكار وعمق المعاني . ولعل انصرافهم الى معالجة الجمال الموسيقي في الشعر قد فوّت عليهم بلوغ مستوى زملائهم المشارقة في هذه الناحية .

٥ – ابتكار شعراء الاندلس لاوزان جديـدة في الشعر العربي ، انفردوا بها عرفت بالموشحات .

وقد حاول المشارقة ان يقلدوهم فيها ، ولكنهم لم يبلغوا فيها شيئاً يذكر من النجاح ، وذلك راجع الى ان الموشحـات قد ظهرت في عصر متأخر في الاندلس ، وصادف انتشارها في المشرق عصر الانحطاط الذي كان فيه الشعر قد انحط في جميع الانواع لا في الموشحات وحدها .

القسم الثاني

شخصيات أدبية

إبراهيم الحُصْري

(٣٣٠ – ٤١٣ هـ = ٩٤١ – ١٠٢٢ م)

حياته :

هو ابراهيم بن علي بن ابراهيم بن تميم الانصاري ، ويكنى بأبي اسحاق وقد شهر « بالحصري » نسبة الى صناعة الحصر او بيعها ، وذكر المؤرخ التونسي حسن حسني عبد الوهاب انهـا نسبة الى « الحصر » وهي قرية صغيرة كانت قرب القيروان ، كان يصنع بها الحصر .

نشأ ابراهيم في مدينة القيروان في اواخر عهد الفاطميين بافريقية ، واخذ الادب وفنون اللسان عن اعلام عصره بالقيروان .

ولمـــا انتقل الفاطميون الى مصر واخذوا معهم كبار الشعراء خلا الجو لابراهيم فبرز كأديب فذ تدور حوله الحياة الادبية ويتتلمذ عليه الكثيرون .

وقد كان له ناد بالقيروان وقيل بالمنصورية (ضواحي القيروان) يقصده الادباء والمتأدبون ليأخذوا عنه ادبه وما يرويه من ادب غيره .

وتحدث ابن رشيق عن هذا الدور من حياة الحصري فقال : « وكان شبان القيروان يجتمعون عنده ويأخذون عنه ، وهو رأس عندهم وشرف لديهم » .

وزعم ابن رشيق الذي لحق الحصري في اواخر حياته وترجم له في كتابه المفقود « الانموذج » ان الحصري قـــد شرع في وضع كتاب عن الشعراء الافريقيين ، وجعلهم طبقات حسب السن ، قال ابن رشيق : « وكنت اصغر القوم سناً فصنعت :

رفقا ابا اسحاق بالعـــالم حصلت في اضيق من خـــاتم
لو كان فضل السبق مندوحة فضـــل ابليس على آدم

قال : فلما بلغه البيتان امسك عن تأليفه ، واعتذر عنه، ومات وقد سد عليه باب الفكرة فيه ولم يصنع شيئاً » .

وقد علق المؤرخ ح ح عبد الوهاب على هذه القصة بقوله: « وانما استعمل ابن رشيق هذه الحيلة ، وقـــد نجح ، ليفوز دون غيره بتدوين حياة شعراء عصره . فصنف فعلاً كتابه « الانموذج » العديم النظير » .

والذي يفهم من قصة ابن رشيق مـــع الحصري المتقدمة ان هناك تنافساً شديداً بين الرجلين رغم فروق السن بينهم، ومع هذا التنافس فان ابن رشيق نفسه يعترف بمكانة الحصري الادبية اذ قـــال عنه في « الانموذج » : كان شاعراً نقاداً ، عالمـــاً بتنزيل الكلام ، وتفصيل النظام ، يحب المجانسة والمطابقة ، ويرغب في الاستعارة تشبهاً بأبي تمام في اشعاره ، وتتبعا لآثاره. وعنده من الطبع ما لو ارسله على سجيته لجرى مجرى الماء ورق رقة الهواء. وسارت تـآليفه وانهالت عليه الصلات من الجهات » .

نشأته :

لم يذكر احد شيئاً عن ايام الحصري الاولى ، فلا نعرف السنة التي ولد فيها ولا نعرف السنة التي مات فيها وان كانت اكثر المراجع تحددسنة ٤٥٣ﻫ لوفاته كما ذكر ذلك ابن بسام في ذخيرته، وهي السنة المرجحة عند مؤرخي الادب المعاصرين [١] ، ويظهر انه مات في سن الثمانين . فان صح هذا تكون ولادته حوالي سنة ٣٧٠ ﻫ او ٣٨٠ .

كذلك لا نعرف شيئاً عن نشأته الاولى وعن ثقافته كيف تكونت، وان كان بعض ثقافته يمكن استنتاجه من تراثه الادبي .

مؤلفاته :

١ – ديوان شعر ، ويعرف بديوان الحصري وقد ذكره ابن خلكان ، وهو كتاب مفقود غير ان نتفا كثيرة من اشعاره قد ذكرتها مصادر مختلفة، وقد جمعها حسن حسني عبد الوهاب ونشر منها قسماً في كتابه « المنتخب المدرسي من الادب التونسي » .

٢ – « زهر الآداب وثمر الالباب » وهو كتاب وضعه على طريقة « البيان والتبيين » للجاحظ، جمع فيه كثيراً من النصوص الادبية شعراً ونثراً ونشر بينها كثيراً من الاخبار والنوادر التي لا يخلو بعضها من غرابة .

وسيأتي تحليل هذا الكتاب وبيان طريقة المؤلف واسلوبه فيه .

---

(١) منهم زكي مبارك وح ح عبد الوهاب ، مع اننا نلاحظ ان هذه السنة تجعله قد عاصر خراب القيروان ٤٤٩ ، مع ان احداً لم يذكر عنه شيئاً بعد هذه الحادثة ، كما ذكر عن ابن رشيق وابن شرف مثلاً .

٣ – كتاب « جمع الجواهر في الملح والنوادر » كما سماه عبد القادر البغدادي اما المؤلف فقد سماه في مقدمته « جواهر النوادر ولمح الملح » .

٤ – « نور الطرف ونور الظرف » ويسمى ايضاً « النورين » ، وهو كتاب في جزء واحد ذكر عنه حسن حسني عبد الوهاب انه مختصر وضعه الحصري لكتاب زهر الاداب ، وقال ايضاً انه موجود في مكتبة « الاسكوريال » (اسبانيا) وتوجد نسخة اخرى في مكتبته الخاصة .

٥ – « المصون في سر الهوى المكنون » وقيل في الدر المكنون وهو ايضاً في الاخبار والنوادر والنصوص المختارة من الشعر ، ذكر عنه ح ح عبد الوهاب ايضاً انه يقع في مجلد واحد فيه حوالي اربعمائة ورقة ، وقال : ان نسخة خطية منه توجد بمكتبة شيخ الاسلام بالمدينة ونسخة اخرى في مكتبة « لايدن » « بهولندا » .

٦ – « طيبات الاغاني ، مطربات القيان » وهو كتاب لم يصل الينا ، ولا نعلم اذا كان هذا هو اسمه بالضبط ام لا، غير ان الحصري نفسه قد اشار الى كتاب له في هذا المعنى ونقل منه قطعاً في كتابه « جمع الجواهر » وقال عند نقله : « وانا اعيد منها هنا قطعة ترتاح اليها الارواح » .

زهر الآداب :

لا يوجد بين أيدينا من كتبه سوى اثنين هما « زهر الآداب » و « جمع الجواهر » والاول اكثر شهرة وانتشاراً وأعظم وأهم في محتوياته وقيمته الادبية لهذا سنقتصر عليه في البحث والدرس وتقدير مكانة صاحبه وقيمة العمل الذي قام به فيه .

ان كتاب « زهر الآداب » قد ألفه الحصري ، كما ذكر في مقدمته ،

ارضاء لرغبة ابي الفضل العباس بن سليمان ؛ وهـذا الرجل كما وصفه الحصري نفسه ، كان أديباً شغوفاً بالكتب حتى انه كان يرحل من مكان الى مكان للحصول عليها ، باذلاً في ذلك ماله مستعذباً فيه تعبه[1] .

امـا موضوع الكتاب فهو الادب كما كان يفهمه الحصري ومعاصروه في زمانهم . والادب عنده هو الشعر والنثر الجيد ، والاخبار والنوادر الغريبـة والطرائف والملح الادبية . ويبدو ان الحصري قد قلد الجاحظ في كتـابه البيان والتبيين خاصة في طريقـة التأليف ؛ اذ لا يوجد منهج منظم وتبويب دقيق في عرض مواد الكتاب ، وليس هناك اي ترتيب لموضوعاته ، غير اننا نحس اثناء مطالعة الكتاب بوجود عناية وقصد في الجمع والانتقاء ، لهذا فان أبرز ما يدرس في هذا الكتاب هو طريقة صاحبه في انتقاء النصوص .

مصادر الكتـاب :

لقد تحدث الحصري نفسه عن مصادر الكتاب كما تحدث عن منهجه فيه، فقال عن الاول : « وألفت له (ابي الفضل العباس بن سليمان) هذا الكتاب ليستغني به عن جميع كتب الآداب اذ كان موشحاً (منتقى) من :

١) بدائع البديع (اي بديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ) .

٢) لآلي الميكالي (الامير ابو الفضل النيسبوري المتوفى سنة ٤٣٦ هـ) .

٣) شهي الخوارزمي (ابو بكر المتوفى سنة ٣٨٤ هـ) .

٤) غرائب الصاحب (ابن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ هـ) .

٥) نفيس قابوس (ابن وشمجير المتوفى سنة ٤٠٣ هـ) .

٦) شذور (ابي منصور الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ) .

---

(١) زهر الآداب ج ١ ص ٥ .

بكلام يمتزج بأجزاء النفس لطافة وبالهواء رقة وبالماء عذوبة [1] » .

ويلاحظ ان اكثر مصادره من كتب عصره ؛ اذ ان اصحابها قد كانوا معاصرين له وقد أشار الى بعضهم اثناء حديثه او نقله عنهم مثل ابي منصور الثعالبي .

ولكن الحصري لم يكتف في كتابه بالجمع والانتقاء بل أضاف الى ذلك خواطره وشروحه وآراءه الشخصية ، وعرض الجميع بأسلوبه الخاص وفهمه المستقل .

منهج الكتاب :

تحدث الحصري عن منهجه في كتابه فقال : « هو كتاب ينصرف الناظر فيه من نثره الى شعره ، ومطبوعه الى مصنوعه ، ومحاورته الى مفاخرته ، ومناقلته الى مساجلته ، وخطابه المبهت الى جوابه المسكت ، وتشبيهاته المصيبة الى اختراعاته الغريبة ، وأوصافه الباهرة الى أمثاله السائرة ، وجده المعجب الى هزله المطرب ، وجزله الرائع الى رقيقه البارع [2] » .

ويبدو من هذا الوصف لمنهج الكتاب ان المؤلف قد تعمد تنويعاً وتلويناً عامين كطريقة الجاحظ في التنويع والتلوين ، والغرض عنده من هذا هو بالضبط ما كان عند الجاحظ منه . فهو يعتقد – كما كان الجاحظ يعتقد – ان هذا المنهج الذي تختلط فيه ألوان الأدب بالأخبار والملح والغرائب هو أنفع وأيسر تناولاً لعموم القراء حتى لا يدب الى نفوسهم الملل من الاسترسال في نفس واحد بين ثنايا موضوع واحد. وهذا الحصري نفسه يدافع عن منهجه

(١) ج ١ ص ٥ .
(٢) ج ١ ص ٤ .

هذا كما فعل الجاحظ من قبله فيقول : « اذا كان الخروج من جد الى هزل ، ومن حزن الى سهل ، أنفى للكلل ، وأبعد من الملل ، (ثم استشهد بقول ابي العتاهية) :

لا يصلح النفس اذ كانت مدابرة   الا التنقل من حال الى حال (١)

ويلاحظ مما تقدم ان غاية الكاتب هي قبل كل شيء ادبية محضة . ولكنه مع ذلك قد ذكر نتفاً من الحوادث السياسية والتاريخية ، كما يغلب عليه الاحتشام والتحرج في نقل انواع معينة من النصوص الادبية . فقد اجتنب نقل كثير من أشعار المجون ، وزعم الحصري انه اجتنبها تديناً ، فقد أراد ان يبرهن عن تعلقه بالاخلاق بل قد ظهر في بعض مواقفه رجلاً ملتزماً حيث قال متحدثاً عن راشد بن ارشد : « وله مذهب استفرغ فيه اكثر شعره وصلت الكتاب عن ذكره » وعلق الدكتور « زكي مبارك » على هذا التحفظ الاخلاقي عند الحصري بقوله : « ان حرص الحصري على الاخلاق ضيع علينا ما اعرض عنه من الآثار الادبية ، وكنا في حاجة الى ان نعرف كل ما ترك الأولون (٢) » .

« على ان الحصري لم يخل كتابه من المجون ، بل ومن فاحش المجون ، وللقارىء ان يتتبع ما وقع من ذلك في الفاف الكتاب ليرى كيف غلب المؤلف على امره ، وأباح ما لا يباح (٣) » .

موضوعاته :

لقد رأينا ان الكتاب يتكون من مختارات ادبية اختيرت وجمعت وفق

---

(١) ج ١ ص٥
(٢) ج ١ ص ١٤ من التقديم
(٣) ج ١ ص ١٤ من التقديم

غرض خاص ، اما موضوعاته فكثيرة ؛ ففيه الحكم ، والتراجم، والوصف ، والمديح ، والهجاء ، والرثاء ، والرسائل ، والنسيب ، والنكت ، والاخبار، ويهتم بصفة خاصة بالكلام عن الصحابة والتابعين ، فينقل اخبارهم ويدون آثارهم . ورغم ان كتابه ادبي محض ، فانه قد اقحم فيه الكلام عن المصيبة في ابناء النبوة ، فتحدث عنهم هكذا : « قد نعي سليل من سلالة النبوة وفرع من شجرة الرسالة ، وعضو من اعضاء الرسول ، وجزء من اجزاء الوصي والبتول [1] » .

كذلك يوجه الحصري عنايته الى الاشراف فيضفي عليهم افضل الصفات ويتحدث عنهم في احترام واجلال .

ولا شك ان هذا يشير الى امرين اثنين :

١ — تدين الحصري وشدة تعلقه بآل الرسول وهو ما يفسر لنا اجتنابه نقل اخبار المجان ونصوصهم في كتابه .

٢ — يدل هذا على ان الرجل قد كانت له نزعة سياسية خاصة ، هي التشيع لآل البيت . ولا نلمس هنا ان النفوذ الديني للشيعة في ايامه كان لا يزال قوياً في شمال افريقيا ، خاصة في تونس ، رغم انتقال الفاطميين الى مصر [2] .

ومن موضوعات كتابه الاساسية البلاغة والبلغاء ، واهتم كذلك بالآداب الاجتماعية في السلوك الفردي والعلاقات العامة ، وقد ذكر ما يجب في معاملة الملوك وما يفضل في الآداب العامة وما يتصل بكثير من الواجبات والحقوق

---

(١) ج ١ ص ٦٧

(٢) راجع في هذا الكتاب الحديث عن الحياة الدينية في المغرب .

الاجتماعية التي كانت مرعية في ايامه . وكل هذه المواضيع كانت متداولة في كتب الادب سواء في المشرق او في المغرب .

طريقته في اختيار النصوص :

لا شك ان اسلوب الحصري في كتابه كان اسلوب جمع وانتقاء من روائع الأدب وبدائعه ، وقد أشرنا فيما تقدم الى المراجع والمصادر التي اعتمدها في هذا الكتاب ، وكذلك الى منهجه في تأليفه ، ونذكر هنا طريقته في اختيار النصوص وما كان يعتمده في هذه الطريقة حتى جاء كتابه على الصورة التي عرف بها .

اختار الحصري نصوصه بعناية فائقة حسب ذوقه الشخصي من جهة ، وحسبما كان يفهم من البلاغة الادبية في عصره من جهة ثانية . وهو في كل ذلك واثق من اختياراته وذوقه ومن احكامه ايضاً كما يدلنا على هذا ما اثبته بنفسه في مقدمة الكتاب وخاتمته .

ويمكن ان نعتبر طريقة الحصري في اختيار نصوصه تعتمد على النواحي التالية :

١ ـ الذوق الشخصي : تحدث الحصري بنفسه عن اعتماده على ذوقه الشخصي في الاختيار فقال : « وبعد فهذا كتاب اخترت فيه قطعة كاملة من البلاغات ، في الشعر والخبر ، والفصول والفقر ، مما حسن لفظه ومعناه ، واستدل بفحواه على مغزاه، ولم يكن شارداً حوشياً ، ولا ساقطاً سوقياً[1] » .

واذا تتبعنا نصوص الحصري واختياراته في كتابيه زهر الآداب وجمع

---

(١) ج ١ ص ٣ .

الجواهر نجده قد عني عناية خاصة باختياراته وفق ما رسمه لنفسه من اتجاه في البلاغة ، فهو لم يخرج عن ذوقه الا في القليل النادر .

٢ — الاستطراد في الموضوع الواحد بما يناسبه من نوادر واخبار وتراجم ومن استعمالات العصر البلاغية في الموضوع نفسه ، وهذا شائع في كافة اجزاء كتابه .

وبما ان هذا العنصر في الاختيار يؤلف ركناً اساسياً في طريقته ، فاننا نورد منه مثلاً .

يعقد الحصري مثلاً فصلاً عن اوصاف الخيل يبدأه برواية قصة عن فرس اهداه الحجاج الى عبد الملك بن مروان ، فيأتي بالاوصاف التي ذكرها صاحب الفرس ثم ينتقل الى فرس آخر أهدي للمأمون ، ثم يأتي بقصة رجل اراد شراء فرس وما قيل فيه من وصف ، ثم يأتي بقول لمحمد بن الحسن بن الحرون يصف فرساً نثراً ، ثم يذكر ابياتاً لتأبط شراً يصف فيها فرساً ، ثم يروي قطعة من النثر لعقبة بن سفيان يصف خيلاً اهداها عمرو بن العاص لمعاوية، ثم يورد ابياتاً شعرية للنابغة الجعدي في الموضوع ، ثم يذكر كلمات متتالية لبعض الاعراب ممن وصفوا الخيل وصفاً بليغاً شعراً او نثرا ، ثم يأتي بأبيات لأبي تمام في نفس الموضوع ، وبأبيات اخرى للبحتري ، ثم ابياتاً لاسحاق ابن خلف ولابن المعز وابن هانيء ، وعلي بن محمد الايادي المغربيين ويورد شعراً للمتنبي في نفس الموضوع ، ثم وصفاً نثرياً لبديع الزمان، ثم يختم الفصل في النهاية بشرح مفردات من مقامة لبديع الزمان : « وسأقول في شرحه بكلام وجيز زيادة في الافادة » وهكذا ينتهي الفصل . وعلى هذا المنوال يسير في بقية فصول الكتاب ومواضيعه[1] .

---

(١) ج ٢ ص ٣٢٣ — ٣٣٨ .

٣ – ميله غالباً الى انتقاء القصير من النصوص شعراً كانت او نثراً .

٤ – اختصار النصوص المطولة بطريقة لا تضيع من المعنى شيئاً ، ذلك انه يأخذ من النص فقرات كاملة متصلة متتالية العبارة كما الفها صاحبها دون ان يحذف منها شيئاً ، ولكنه يستغني عما زاد عن حاجته من النص الاصلي ، ومن امثلة هذا ما اختاره من مقدمة الشعر والشعراء لابن قتيبة عن وحدة القصيد وعن السبب في استهلال القصائد بالنسيب .

٥ – التنويع في النصوص مما يعرض به امام القارىء افكاراً متعددة في موضوع واحد وصور شتى لمواقف او عواطف متشابهة او متقاربة .

٦ – لا يصدر حكمه او يبدي رأيه في النص الا في القليل النادر ، واغلبية احكامه تكون بعبارة موجزة مقتضبة يكتفي فيها احياناً كثيرة بلفظ واحد او لفظتين مثل « الاستحسان » « يستحسن » « ومن جيد » الخ .

وهذا امر طبيعي اذ هو الذي اختار النصوص وتذوقها قبل اثباتها في كتابه ، والمفروض انه يختار ما يعتبره جيداً من النصوص ، خصوصاً وقد سبق له ان اعلن في مقدمة كتابه ان اختيار النصوص لا يقل عن تأليفها من الناحية الادبية ذوقاً وفهماً وفي هذا يقول : « وليس لي في تأليفه من الافتخار اكثر من حسن الاختيار . واختيار المرء قطعة من عقله ... اذ كان معلوماً انه ما انجذبت نفس ولا اجتمع حس ، ولا مال سر ، ولا جال فكر ، في افضل من معنى لطيف ، ظهر في لفظ شريف [1] » .

ولا شك انه في هذا يقلد او يتبع طريقة ابن عبد ربه في كتابه «العقد الفريد» الذي كان هو الآخر كتاباً جامعاً للنصوص والاخبار الادبية المختلفة . وقد قال

---

(١) ج ١ ص ٦

ابن عبد ربه في هذا المعنى بالذات ما نصه: « وانما لي فيه تأليف (الاخبار وفضل) الاختيار وحسن الاختصار .. واختيار الكلام اصعب من تأليفه . وقد قالوا اختيار الرجل وافد عقله » .

ولا شك ان الاقتباس والمحاكاة كانا رائدي الحصري في تأليفه لهذا الكتاب، لأن ابن عبد ربه متقدم عنه بنحو قرن ونصف[1] .

٧ – تعاليقه وملاحظاته حول المعاني الشعرية الواحدة التي تناولها عدد من الشعراء ، وعلى الأخص بيانه او اشارته لما قد يكون المتأخر قد قام به نحو شعر متقدم من اقتباس او تصرف او سرقة في المعنى . ومن أمثلة ذلك ما ذكره عن الطرماح بن حكيم الطائي وعن ابن بسام .

« وقال الطرماح بن حكيم الطائي :

ألا ايها الليل الذي طال اصبح ... بيوم، وما الاصباح فيك بأروح

على ان للعينين في الصبح راحة ... لطرحهما طرفيهما كل مطرح

فنقل لفظ امرىء القيس ومعناه ، وزاد فيه زيادة اغتفر له معها فحش السرقة .

وقال ابن بسام :

لا أظلم الليل ولا أدعي ... ان نجوم الليل ليست تغور

ليلي كما شاءت ، فان لم تزر ... طال، وان زارت فليلي قصير

وانما أغار ابن بسام على قول علي بن خليل فلم يغير الا القافية :

(١) ولد ابن عبد ربه عام ٢٤٦ ومات عام ٣٢٨ هـ .

لا أظلم الليــــل ولا أدعي	ان نجوم الليل ليست تزول
ليلي كمـا شاءت قصير اذا	جادت، وان ظنت فليلي طويل

٨ – الموازنة : كثيراً مـــا يقوم الحصري بموازنة بين عدد من الشعراء او شاعرين في معنى من المعــاني عالجه هؤلاء الشعراء ، كموازنته مثلاً بين البحتري وابي تمام وقد نقلها عن الحاتمي وكموازنته بين العتابي والعبــاس بن الاحنف وقد نقلها عن الصولي[1] وهو لا يتوسع في المقارنة حتى تكون بين شاعر وشاعر بمـا تفرضه المقارنة من دراسة لكلا الشاعرين بل يقتصر على المقارنة بين معنى ومعنى في بيت او اكثر . وغالباً ما ينقل هذا النوع من الموازنة عن غيره .

٩ – حفظه لحياة عصره الادبية بما ينقله من استعمالات معـــاصريه في شتى المواضيع الادبية والاجتماعية ، وغالباً ما يذكرها تحت عنوان « ألفـاظ لأهل العصر ... » ، وقد شملت هذه الاستعمالات شتى المواضيع التي تناولها في كتابه، فتارة في الاخلاق واخرى في وصف الثلج والبرد ، او في وصف القيظ والحر ، ومرة في وصف الليل ، واخرى في المدح او في التهنئة بالخلاص من الأسر . ولا ندري هل هذه الاستعمالات من تأليفه هو او انها شائعة بين معاصريه كمحفوظات لغوية يستعمل كل منها في مقامه او يستعان به للتعبير عما يناسبه ، وقد يكون هو الذي ألفها وعبر بها عما هو غالب في عصره ، والذي يرجح هذا هو اسلوب السجع الذي جاءت به هذه الاستعمالات مما يكاد يكون صورة طبق الاصل من اسلوبه الواضح كل الوضوح في مقدمة الكتاب وخاتمته .

١٠ – اعتداله في فهم البلاغة واعتباره لها وسطاً بين الغرابة والحوشي وبين الساقط والسوقي . وقد عني الحصري بعرض آراء الكثير من علماء البلاغة او من البلغاء مثل الروماني ، وابن المعتز ، وابن المقفع ، وعمرو بن عبيد والجاحظ ..

---

(١) ج ٣ ص ٦١٩ و ج ٤ ص ٩٧١ .

ونقـل الكثير من أقوالهم في البلاغة والفصاحة ومـــا يتصل بها . وقد عرف الحصري البلاغة في مقدمته ، ومن تعريفه لها واختياراته يتضح انه من أتبـاع المدرسة الادبية في البلاغة التي تعتمد على الذوق الجمـــالي وعلى المعنى الحسن في اللفظ الحسن ومن تعريفهم لها ما نقله الحصري من قول علي بن عيسى الروماني :

« البلاغة ايصال المعنى الى القلب في احسن صورة » .

واما ابو هلال العسكري فقد عرفها بقوله :

« ان البلاغة هي كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه لتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن » ، وعندما نتتبع اسلوب الحصري نجده قريباً من هذا النوع من البلاغة باستثناء المعرض الحسن فان اسلوب السجع قد افقد طريقته بعض جمالها ، ولكن لا ننسَ ان السجع كان مذهباً ملتزماً في عصره عند كثير من اهل القلم [١] .

ومما يدل على اعتدال الحصري في البلاغة هو انه لم يأت في نصوصه بما يخرج عن حدود تعريفه الادبي لهـــا وحديثه عنها . ويلاحظ هنا ان اغلبية نصوصه النثرية المختارة قد كانت خالية من السجع مما يدل على انه كان يتتبع المعاني الجميلة في اي صورة من اللفظ جاءت .

١١ – واخيراً يجب ان نذكر ناحية ذات دلالة عظيمة في نصوص الحصري وهي نسبته النصوص التي اختارها الى اصحابها واحياناً الى الكتب الـــتي نقلها منها بدقة وامانة قل وجودهما في كتب غيره المماثلة لكتابه .

ويجب ان نذكر ان لكتاب الحصري قيمة ادبية وتاريخية مزدوجة ، فهـو كتاب ادبي ممتع لا يقـل عن كتاب البيان والتبين من ناحية نصوصه الادبية ، كما

---

(١) راجع تفصيلا كاملا عن البلاغة ودرجاتها واقوال البلغاء والعلماء في ذلـك في صفحات ١٠٨ — ١٤٤ من الجزء الاول .

انه احسن منه عرضاً . هـذا من الناحية الادبية واما من الناحية التاريخية فقد حوى معلومات ونصوصاً ادبية كثيرة ذات قيمة كبيرة في باب تاريخ الادب .

والغريب الذي يلفت النظر في هذا الكتاب ان نصوصه المختارة كانت كلها تقريباً من ادباء اهل المشرق باستثناء عـــدد قليل منها لبعض المغاربة مثل ابن هانىء وعلي بن الايادي التونسي وهو في هذا يشبه صاحب العقد الفريد ، وهذا ما يعد نقصاً فادحاً بالنسبة لتاريخ الادب العربي في المغرب .

ولكن يظهر ان الحصري ، مثل ابن عبد ربه ، قد الف كتابه لاهل المغرب حتى يطلعهم على آثار المشارقة ويجعلها في متناولهم ، مهملاً آثار اهـــل المغرب لاعتقاده انها في متناول الجميع .

كما كنا نود لو ان الحصري لم يكتف بالاختيار والعرض ، بل اضاف الى ذلك احكامه وتحليله الادبي . ولكن لعـله فضل ان يترك الاختيار في التذوق والحكم للقارىء ، ولانه لا يعتبر نفسه في هذا العمل ناقداً مثل ابن رشيق بـل جامعاً ومنتقياً فحسب .

إبن هانئ

(٣٢٠ – ٣٦٢ ه = ٩٣٢ – ٩٧٣ م)

حياته :

كثيراً ما شبه ابن هانيء بالمتنبي وقرنت مكانته الادبية في المغرب بمكانة المتنبي في الشرق، حتى ان النقاد القدماء لقبوه بمتنبي المغرب وسنرى بعد دراستنا لشخصيته مدى التشابه بين الشاعرين وبين مكانتهما خصوصاً وقد عاشا في عصر واحد تقريباً وان لم يعيشا في ظل دولة واحدة ..

نشأ ابن هانيء في الاندلس وان كان ابوه من المهدية . عاش وترعرع تحت ظل دولتين عظيمتين احداهما دولة بني امية في الاندلس وثانيتهما دولة الفاطميين في المغرب . وقد قضى ابن هانيء طفولته وشبابه في الاندلس تعلم وتثقف فيها، ولكنه لم يكن يحب دولة الامويين ولا يؤمن بحقها في الحكم . اذا كان متشيعاً للفاطميين مثل ابيه ؛ وهم في نظره احق بالخلافة والحكم من الامويين والعباسيين معاً ؛ لانهم ورثة الرسول ومن نسبه .

ولد ابن هانيء في قرية من قرى اشبيلية سنة ٣٢٠ ه وهو من اصل عربي صميم يتصل نسبه بالمهلب بن ابي صفرة الازدي القائد العسكري المشهور في دولة

بني امية بالشام . وكانت عائلة ابن هانيء مشهورة بالعلم كما اشتهر اجداده بعروبتهم وقحطانيتهم ، وهذا ما جعل ابن هانيء يشعر طيلة حياته باعتزاز الماضي ويفتخر باجداده ، وهذه ناحية من النواحي التي يختلف فيها عن المتنبي . فبينما ترى المتنبي يهمل الحديث عن اجداده وعن نسبه ويعتبر انه قد البسهم شرفاً ويقول :

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي وبنفسي فخرت لا بجدودي

نجد ابن هانيء يقول :

ذرني اجدد ذلك العهد الذي اعيا على الايام ان يتقشبا

وقد اجتمع لابن هانيء كل ما يطمح اليه من اجواء الثقافة وامجاد الماضي ومكانة الحاضر . فعائلته عائلة علم ، والمدينة التي عاش فيها مدينة علم وأدب وفن، وكانت الدولة الاموية في الاندلس ترعى الثقافة بكل عناية وخاصة الجانب الديني والادبي منها ، وكان الانصراف كثيراً الى ميادين الفنون التي ساعد ازدهارها في الاندلس ما كانت تتحلى به هذه البلاد من بيئة تنوع جمالها وبرع اهلها في الاستفادة منه والتغني به .

ويمكن القول بان ابن هانيء قد استفاد في شبابه من هذه البيئة اذ تلقى دراسة لغوية ودينية وأدبية واسعة ، وقد درس القرآن وعلومه وتأثر به في اسلوبه القوي وكان كثيراً ما يقتبس منه في اشعاره من ذلك قوله :

هب لي وزيراً من اخي استعن به وأشد به أزري وأشركه فيأمري

والظاهر ان ابن هانيء قد تتلمذ لغوياً عن ابن القالي صاحب كتاب الامالي في مسجد قرطبة : ذلك ان ثروة ابن هانيء اللغوية عظيمة غزيرة ، ومقدرته على التصرف فيها كبيرة لا يشاركه في هاتين الميزتين الا المعري والمتنبي . وكان

ابن هانىء في دراسته مولعاً جداً بالشعر الجاهلي وهذا ما ترك في اشعاره الطابع الجاهلي الخشن .

والى جانب ثقافته الادبية واللغوية كان لابن هانىء ثقافة دينية فيها شيء كبير من التعمق الذي مكنه من دراسة المذاهب الدينية في ضوء تفكير فلسفي لا يخلو من سعة وعمق وقد تأثر من خلال دراسته الدينية وعن طريق أبيه بمذهب الباطنيين وما يوجد في هذا المذهب من تقديس للامام، وقد ملأت نفسه هذه العقيدة الباطنية حتى لم يستطع ان يخفيها في محيط يناهض هذه العقيدة وفي ظل دولة هي من ألد أعداء الفاطميين ، ولكن نزعة ابن هانىء الفاطمية لم تمنعه من الاتصال ببعض رجال الدولة الأموية في الأندلس وخاصة امير اشبيلية . ويظهر انه لم يتصل بهم الا عندما اصبح فقيراً معدماً تماماً ، بعد ما توفي والده وأتلف هو ما خلفه والده من ميراث في الملذات التي يسرف فيها اسرافاً كثيراً. ولكن مدائحه في هؤلاء الرجال لم تحفظ بين اشعاره الاخرى ، ولعله هو الذي قضى عليها لكي لا تعرف عنه حين انتقل الى بلاد الفاطميين . وكان الأندلسيون كثيري التعصب الديني لا يتسامحون مع من يحمل مذهباً دينياً وسياسياً غير مذهبهم . وكانوا بالخصوص لا يتسامحون مع من تشيع في افكاره نزعة الفلسفة، لهذا ما كاد يترعرع ابن هانىء في وسطهم وتبرز شخصيته المذهبية والثقافية الفلسفية حتى اخذوا يضايقونه ويبغضون اليه المقام بينهم ، فاتهموه بالزندقة والكفر كما هي الحال بالنسبة لكل المثقفين الاحرار الذين لا يسايرون الجمهور والفقهاء في مذهبهم الديني وما يزال هذا الاتجاه التعسفي شائعاً الى اليوم بين المغاربة ، وخشي ابن هانىء ان تتطور هذه التهمة فيذهب ضحية لها ، فهاجر نهائياً من الاندلس الى افريقية ، فقيراً طريداً او شبه طريد . وقد قيل ان امير اشبيلية هو الذي نصح ابن هانىء بالخروج من الاندلس خوفاً على حياته من الناس ، ولم يكن شاعرنا قد نضج بعد ، وليس عنده من تجارب الحياة ما يمكنه من الاعتماد على نفسه . فقد كان وحيداً في بلاد يشعر فيها بالغربة الحقيقية .

وهكذا هاجر ابن هانىء وعمره لم يتجاوز السادسة والعشرين اي سنة ٣٤٦ .
وهكذا خرج ابن هانىء غير آسف على شيء مما كان عليه . ولا شك انه لقي صعوبات وشدائد في طريق انتقاله الى موطنه الاصلي وفي هذا يقول :

أجزت عليها عابراً وتركتها   كأن المنايا تحت جنبي أرائك
ومـا نقموا الا قديم تشيعي   فنجى هزبرا شده المتدارك

في المغرب :

واخيراً استقر الشاعر في موطن والده المهدية وأخـذ يلتهز الفرص ليظهر شاعريته للنـاس وليعلم بهـا اولو الامر ولم تمض بضعة شهور حتى وقعت حادثة كانت فرصة لكي يظهر فيها شاعريته ، وهي انتصار القائد الفاطمي جوهر على خصوم الدولة الفاطمية في سجلماسة ، فقد قضى على الثائرين فيهـا ووطد نفوذ الفاطميين في مختلف انحاء المغرب ، فكانت هذه المناسبة عظيمة بالنسبة للشاعر اذ أظهر فيها لأول مرة منذ قدومه الى المهدية قوته الشاعرية من ناحية وحماسته لمذهب الفاطميين من ناحية اخرى ، فقـد اطنب في هاته القصيدة في وصف بطولة القائد جوهر وانتصاراته وشكر اخلاصه للخليفة المعز، الا ان ابن هانىء كان في الواقع قد علق آمالاً اكثر مما يجب على مدحه لجوهر ولكنه لم ينل ما كان ينتظره لديه من الجوائز الكبرى ، ومع ذلك فقد بقي محتفظاً باعجابه به، اذ عـاد يمدحه مرة اخرى بقصيدة مشهورة سجل فيها مـا حققه هذا القائد من نصر للفاطميين باستيلائه على مصر سنة ٣٥٨ كما مدح المعز نفسه في السنة نفسها بقصيدة قوية ذكر فيها الانتصار الذي حققه قائـد المعز في مصر ، وكان مطلع هذه القصيدة :

الا هكذا فليهد من قاد عسكرا   وأورد عن رأي الامام واصدرا

وبذلك اتصـل ابن هانىء لأول مرة بالمعز اتصالاً وثيقـاً ، وعندئذ بدأت

حياة الشاعر تفيض رخاء وبذخاً مما بذله له المعز من اموال وهدايا . كما مدح بعض أمراء المعز . وقد انطلق الشاعر بعد هذا في مدح المعز بروائع كثيرة من الشعر ، سجل بها الكثير من حياة المعز واعماله ومفاخره . وقد خلف لنا قصائد متعددة غير ان مدحه للمعز بقي في مرتبة وحيدة من السمو والاجادة .

وانغمس الشاعر في حياة لا تخلو من اسراف مكنه منها ماله الكثير وجو الطمأنينة الذي اصبح يعيش فيه ، وقد حقق بذلك كل ما يطمح اليه الشعراء في ذلك العصر من عز وشهرة ومال . وقد عبر هو نفسه في ابيات من شعره وصف فيها حياته الجديدة واعترف بأنه قبل ان يتصل بالمعز كان يعيش في شقاء فأصبح يعيش في نعيم ، وذلك تحت ظل المعز وبفضله . وهكذا كانت قصائده في المعز تفيض حرارة وصدقاً لم يدفع الشاعر اليها عطاء المعز وكرمه فقط بل اشتراكه مع المعز في العقيدة المذهبية ، وكل هذه النواحي تذكرنا بالمتنبي وسيف الدولة اللذين كانت تجمع بينهما عقيدة مشتركة هي الحماس للعروبة كما جمعت بين المعز وشاعرنا عقيدة الحماس للمذهب الفاطمي . وكما كان المتنبي عندما يمدح سيف الدولة انما يمدح فيه خصال العظمة التي يحبها المتنبي في الامير العربي ، كان ابن هانىء عندما يمدح المعز انما يمدح فيه الخصال العظيمة التي يحبها في الملك الفاطمي .

وكان ابن هانىء يتنقل في كامل مملكة المعز ويشيد بجمالها وخاصة ببلاد الزاب التي مدح فيها الامير جعفر بن علي. وهناك من يقول ان ابن هانىء لم يقف امام المعز الا بعد اتصاله بالامير جعفر والقائد جوهر ، واخيراً وصل الى المعز في القيروان فرأى لاول مرة عظمة الملك الفاطمي وجلال الدولة الفاطمية وبعد هذا اللقاء الاول انطلق شاعرنا يمدح المعز في مختلف المناسبات حتى كاد لا يمدح غيره ، وقد بلغت قصائده فيه اكثر من عشرين قصيدة كما ان قصائده هذه في المعز تكون نصف تراثه الشعري تقريباً .

كان ابن هانىء في مدائحه للمعز يتحمس للمذهب الفاطمي ويدعو المعز لغزو الامويين في الاندلس وذلك لما بقي في نفسه من حقد عليهم ، خصوصاً وان دولة المعز كانت عظيمة جداً . وكانت ترتكز على قوة عسكرية هائلة وخاصة الاسطول البحري الذي كان يسيطر على سواحل البحر الابيض المتوسط ويرهب الروم في جزره وعلى سواحل ايطاليا كما يرهب الامويين في شواطىء الاندلس كما كان لهم نفوذ بحري حتى في المحيط الاطلسي. وقد كان اعظم عمل عسكري قام به المعز هو احتلاله لمصر على يد قائده جوهر وتأسيسه مدينة القاهرة سنة ٣٥٨ هـ ثم انتقل المعز الى مصر ، ونقل اليها قاعدة الخلافة الفاطمية سنة ٣٦٢ هـ وبذلك اصبحت للفاطميين امبراطورية عظيمة متباعدة الاطراف الى ان توفي المعز سنة ٣٦٥ هـ وكانت هذه العظمة مصدر الهام لاشعار ابن هانىء في المعز فأحلته المكانة الاولى لدى الخليفة الى ان توفي ابن هانىء في طريقه الى المعز في القاهرة سنة ٣٦٢ وكان موته في ظروف غامضة جداً في برقة على حدود مصر الغربية ، ولا يعرف بالضبط كيف مات وان كان المؤكد انه قد قتل وهو سكران لا يستطيع حتى الدفاع عن نفسه .

لقد سجل ابن هانىء في اشعاره كل مظاهر عظمة الدولة الفاطمية لا بروح التاجر كما يفعل الشعراء المداحون وانما بروح المتحمس المخلص وهذا ما جعل الخليفة المعز يستقدمه اليه في القاهرة فلما قتل في الطريق اليه أسف الخليفة كثيراً وتألم لقتله وقال : « كنا نريد ان نفاخر به اهل المشرق فلم ترد لنا الاقدار ذلك .

شعره :

ان اكثر ما اشتهر به ابن هانىء هو مدائحه للمعز وللفاطميين على العموم ، وقد سميت هذه القصائد بالمعزيات وهي لا تزيد عن العشرين قصيدة . والطابع الذي تمتاز به هذه المدائح هو الطابع المذهبي الشيعي فابن هانىء يسبغ صفات

من الاجلال والتعظيم والتقديس تتلاءم مع مذهب الشيعة في تصور الامـــام او الخليفة تصوراً قدسياً ، فهم ينزهونه عن النقائص البشرية ويرفعونه الى مستوى الكـــال الإلهي تقريباً فهو في نظرهم معصوم من الخطأ ، وهو نور إلهي ، بل يعتبره بعضهم يتحلى ببعض صفات الاله ! ومن ثم كانت طاعة النـــاس له ليست لها حدود وهي من الواجبات المقـدسة التي لا يجوز للمسلم (الشيعي) في نظرهم ان يتخلى عنها .

هذه الصفات وهذا التقديس الذي التزم به ابن هانيء في قصائده للمعز ، قد ظن به بعض الناس وخاصة نقاد الادب ومؤرخيه ان ابن هانيء يتزلف بمعانيه تلك الى الخليفة اكثر مما يجوز، او انه قد بلغ حد الكفر في سبيل هذا التزلف. ولكن الواقع هو ان ابن هانيء لم يكن مدفوعاً بدافع التملق بقـدر ما كان مدفوعاً بدافع الايمان المذهبي الفاطمي بما يصور به هذا المذهب الامام او الخليفة من صفات النزاهة والكمال المطلق ، ولهـذا لم يشعر ابن هانيء بأي حرج حين خاطب المعز بقوله :

ما شئت لا ما شاءت الاقدار   فاحكم فأنت الواحـد القهـار
فكأنمـا انت النبي محمـــد   وكأنمــا أنصـارك الانصـار
انت الذي كانت تبشرنا بـه   في كتبها الاحبـار والاخبـار
شرفت بك الآفاق،وانقسمت بك   الارزاق والآجـال والاعمـار

وفي قصيدة اخرى يقول :

هـذا الشفيع لأمة يأتي بهـا   وجـدوده لجدودها شفعـــاء
هـذا أمين الله بين عبـــاده   وبلاده ، ان عدّت الأمنـــاء
هـذا الذي عطفت عليه مكة   وشعابهـا والركن والبطحاء
هـذا الأغر الأزهر المتـــأ   لق المتـــدفق المتبلج الوضاء
فعليـــه من شيم النبي دلالة   وعليـه من نور الاله بهـــاء

فنحن نرى ما في هذه الابيات من تدفق هذه الأوصاف وتسلسلها وما يبدو على صاحبها من ارتياح وحماس في قولها ، كما تحس من خلال الابيات نفسها بأن قائلها مدفوع اليها بدافع نفسي عميق لا يشعر معه بأي تحرج ولا يخشى الاتهام بالتملق كما انه يحلي هذه الصفات في الخليفة الفاطمي من ناحية الاسلوب بخفة في الوزن والتعبير وعناية كبيرة في اختيار الألفاظ وسهولة في التشبيه ، وكل ذلك يجعلنا ندرك الى اي حد يرى المتشيع للفاطميين هذه المعاني والصفات شيئاً طبيعياً في الامام بل ان ابن هانىء يتجاوز هذا الحد الى ما هو ابعد منه فينسب الى الخليفة انه سبب خلق الجنة لأن الجنة اذا لم يذهب اليها الخليفة فلمن تكون اذن قد خلقت ؟ وفي هذا المعنى يقول ابن هانىء :

من يشهد القرآن فيه بفضله وتصدق التوراة والانجيل
فافخر فمن أنسابك الفردوس ان عدت ، ومن احسانك التنزيل
وأرى الورى لغواً وانت حقيقة ما يستوي المعلوم والمجهول

وشعر ابن هانىء في المدح لا يلفت نظرنا فيه هذا الغلو فحسب بل ينبغي ان نتفطن الى ان غلوه هذا كان صادراً عن عقيدة حقيقية ، وهذا ما جعله غلواً غير ضعيف ، واذا جاز لعلماء الدين وفقهاء السنة ان يحكموا على ابن هانىء بالكفر فان نقاد الأدب ليس من مهمتهم ان يلتفتوا الى هذه الناحية وانما من حقهم فقط ان ينظروا الى النواحي الفنية وحدها في انتاج الاديب شعراً كان أم نثراً . وعلى هذا فان من حقنا ان نحكم على هذا الشعر بما قد يبدو فيه من تكلف وصنعة وسطحية في المعاني او بما قد يبدو عليه من حرارة العاطفة وجمال الاسلوب وصدق في المعاني والخلجات ، واما النواحي الاعتقادية فانها خارجة عن نطاق البحث الادبي .

على ان هذه الناحية الفنية ليست هي وحدها الجديرة بالتقدير في شعر ابن هانىء اذ توجد ناحية اخرى مهمة من جوانبها الاخلاقية والتاريخية ؛ وهي نجاح

الشاعر في تصوير البطولة في الحروب والاشادة بالانتصارات العسكرية ، وكلاهما من مفاخر اجدادنا التي نعتز بها . ومن ذلك القصيدة التي مدح بها الشاعر المعز عندما اعاد فتح صقلية وقتل الملك – امانويل – واجتاح جنوب ايطاليا في اواسط القرن الرابع ، وقد استطاع شاعرنا ان يسجل كل هذه الوقائع ويذكر كثيراً من تفاصيلها بشعر لا يخلو من جمال وعظمة وفخامة تثير الاعتزاز ، من ذلك قوله :

يوم عريض في الفخار طويل   ما تنقضي غرر له وحجول
سل رهط مانويل وانت عذرته   في أي معركة ثوى مانويل

وقد سجل ابن هانىء على غرار هذا الاسلوب معارك العرب في المغرب مع الروم كما سجل المتنبي معارك العرب في المشرق مع الروم ايضاً . ومن مواطن الشبه بين الشاعرين كذلك ان كلا منهما كان له ممدوح توفرت فيه شروط البطولة القومية التي تجعل الشاعر يندفع في مدحه الى حد الغلو والافراط في التعظيم ، وفي كل ذلك تلمس حرارة في العاطفة جديرة بالاحترام ، كقوله للمعز مثلاً :

لي مهجة ترفضّ فيك تشيعاً   حتى تكاد مع المدائح تهمل

ولا شك اننا نحس من خلال هذا البيت بما يرمي اليه الشاعر من تبرير مدائحه في المعز ، وذلك لانه كان يخشى ان يرميه الناس بالغلو في تقدير خصال المعز ، فكان يحاول ان يبرر موقفه ويفسر دوافعه بمثل هذا البيت او بمثل قوله :

اذا ما مدحناكم تضوع بيننا   وبين القوافي من مكارمكم طيب
فان أك محسوداً على مدحكم   فغير نكير في الزمان الاعاجيب

وامتاز ابن هانىء في تقديره للمعز الفاطمي باعتقاده ان العالم الاسلامي في

عهـده كان مشتتاً بين ملوك وامراء ليسوا اهلاً لحكمه لان اكثرهم ليسوا عرباً ، وهو في هذا يلتقي مع المتنبي التقاء كاملاً باستثناء الحافز المذهبي الشيعي عند ابن هانىء وفي هذا يقول :

سوام رعاع بين جهل وحيرة ومُلك مضاع بين ترك وديلم

ولهذا نجده يهدد الدولة العباسية ويحث المعز للقضـاء عليها بعد ان تم له فتح مصر :

تجهز الى بغداد قد فتحت مصر وانجز صرف الدهر ما وعد الدهر
تقول بنو العباس هل بلغ المدى فقل لبني العباس : قد قضي الامر

وكان المعز بعد ان انتقل الى مصر يريد ان يجعل من ابن هانىء صوتاً داعياً له في المشرق ، فلما لقي الشاعر حتفه في الطريق سنة ٣٦٢ قـال المعز بحسرة واسف : « لقد كنا نرجو ان نفاخر به اهل المشرق فلم يقدر لنا ذلك » .

شخصيته :

لقد مات ابن هانىء وهو في الثانية والاربعين من عمره في طريق ذهابـه الى مصر ورغم هذا العمر القصير فان له مكانـة كبيرة في تاريخ الادب العربي لا في المغرب فقط بل وفي المشرق ايضاً .

لقد كانت حياة ابن هانىء ذات شطرين شطر قضاه بالاندلس وهو عهد النشأة والشباب الاول ، وكان فيه منطلقاً الى اللهو والتهتك ميالاً الى المجون والعبث ، اما الشطر الثاني فقضاه بالمغرب في جد واتزان اجبرته عليها ظروفـه الجديدة وان كان يخلو احياناً الى بعض حياته القديمة فيرفه فيها عن نفسه . وهـذه الحياة الجديدة الرصينة التي عاشها في المغرب قد دفعه اليها شعوره الجديد بانـه اصبح

يحمل رسالة سياسية ، وصارت له مكانة اجتماعية لا يجوز له معها الا ان يكون مثلاً اعلى في الجد والخلق النبيل ، وقد صور نفسه في هذا الوضع الجديد بقوله :

اني لانف ان يميل بي الهوى　　　او ان يراني الله حيث نهاني

المتنبي وابن هانىء

ومن خلال هـذه الحياة بشطريها السابقين يمكننا ان نتصور شخصية الشاعر بمـا فيها من متناقضات ، فكما ان فترة الشباب من حياته كانت تناقض فترة الكهولة نجـد في نفسه اطرافاً متباعدة ، فهو من ناحية مرهف الشعور قوي الاحساس وهو من ناحية اخرى قوي العقل يمتاز في تفكيره وعزيمته ، وهـذا موطن آخر من مواطن شبهه بالمتنبي

كما يشبه المتنبي في كون كل منهما يحمل نفساً مترفعة عن التزلف والتذلل امام الممدوحين . والشبه بينهما موجود ايضاً في الغلو والمبالغة في وصف الممدوح ولا ننسَ ان كلا من الشاعرين كان اتصاله بملك مجاهد ، وكان هذا الاتصال يقوم بالدرجة الاولى على مبدإ سياسي يتمثل في ذلـك الملك ، فاعتزاز الشاعرين بالممدوح كان اعتزازاً منبعثاً عن صدق وايمان وعاطفة حقيقية .

على انه ينبغي ان نذكر ان نفسية ابن هانىء كانت تختلف عن نفسية المتنبي في شيء اساسي له تأثيره في الشخصية البشرية ، وهو ان المتنبي لم يعرف اللهو والمجون قط في حياته بينما ابن هانىء قد اشبع نهمه من هذين وهو شاب بالاندلس ومن مظاهر الاختلاف بين الشاعرين ايضاً : ان المتنبي قـد فشل في تحقيق آماله وطموحه في الحياة بينما نجح ابن هانىء في تحقيق ما كان يصبو اليه مع اختلاف الاهداف عند كل منهما .

ومن الطريف ما يلاحظ ان فشل المتنبي في طموحه قـد سبب له النجاح

الكامل في شعره ! وقــد ملأ ذلك الفشل شعر المتنبي بروح متمردة وعواطف عميقة ولكنها مرة وافكار قوية ولكنها قاسية احياناً ، فــاذا نظرنا الى ابن هانىء من هذه الجوانب كلها وخلال حياة الجد التي عاشها بالمغرب نجــد نفسيته فقيرة من الالم وافكاره سطحية وطموحه محدوداً ، لهــذا لم يستطع ابن هانىء رغم ثقافته الفلسفية الواسعة ان يغوص في اعماق الافكار الفلسفية والنفسية كما فعل المتنبي .

لقد كانت نفسية المتنبي قوية وكان طموحه بعيداً فهو يريد ان يخاصم الملوك ويأخذ مكانهم بينما كان طموح ابن هانىء محدوداً يكفيه ان يجــد ملكاً يرضي تصوراته الشعرية وعقيدته السياسية فيمدحه بصدق .

وثم ناحية اخرى مهمــة برز فيها اختلاف الشاعرين كثيراً وهي نظرة كل منهما الى الحياة ، فبمقارنة عامة بين اشعارهما في هذا الموضوع ندرك الى اي حد كان المتنبي عميقاً في نظرته الى الحياة بينما كان ابن هانىء سطحياً بسيطاً . فنظرة ابن هانىء الى الحياة لا تختلف كثيراً عن نظرة العوام اليها ، فهو يراها : ضحكة وبكاء ، وتــلاق وفراق ، ومن هنا كان حديث شاعرنا عن الحياة عابراً وقليلاً ، اما الحياة في نظر المتنبي فهي شيء اعمق من ذلك يشبه ان يكون مبدأ فلسفياً كما كانت افكاره ونظرته اليها شائعة في اغلب اشعاره . وعنده ان الحياة ينبغي ان تقام على الحذر والحيلة بكل انواعها . وعنده ان القوة هي اثمن ما في الحياة ، وان الجد والعظمة هما اسمى غايات الانسان فيها .

تقليــد المتنبي :

وقد حاول ابن هانىء ان يقلد المتنبي في نظرته هذه الى الحياة وان يستوحي بعض افكاره الفلسفية ولكنه فشل في ذلك وظهر تكلفه واضحاً في هــذه المحاولة ، من ذلك قوله :

طلب المجد من طريق السيوف　　شرف مؤنس لنفس الشريف
ان ذل العزيز افظع مرأى　　بين عينيه من لقاء الحتوف

وكم من فروق بين هذه المعاني وبين معاني المتنبي في قوله :

فلا تحسبن المجد زقا وقينة　　فما المجد الا السيف والفتكة البكر
وتضريب اعناق الملوك وان ترى　　لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركك في الدنيا دوياً كأنما　　تداول سمع المرء انمله العشر

فالفرق واضح بين حرارة النفس عند المتنبي وبين برودته وتصنعه عند ابن هانىء ، وهو ما نلاحظه في اكثر الأفكار او المعاني التي جاء بها ابن هانىء مقلداً او مستلهماً فيها المتنبي .

أثر الشعر الجاهلي :

ان الحديث عن المقارنة بين ابن هانىء والمتنبي يسوقنا الى ذكر جوانب اخرى من شعر ابن هانىء . فنجد مثلاً ان شاعرنا لم يحاول ان يستلهم المتنبي في معانيه الشعرية فحسب بل حاول ان يستلهمه ايضاً في المنابع التي اخذ عنها المتنبي جزالة شعره . ومن المعروف ان المتنبي كان يفضل الشعر الجاهلي كمصدر عن كل منبع آخر. وكذلك فعل ابن هانىء فقد كان مولعاً بالشعر الجاهلي كثير الحفظ له بحيث يعتبر منبعاً لأسلوبه واستلهاماته الشعرية ايضاً . ومن الغريب ان ابن هانىء قد استلهم في اشعاره من حيث الاسلوب على الاقل الشعر الجاهلي ولم يشغله عن ذلك لا عصره ولا جو الحضارة الاندلسية التي قضى شبابه فيها ، وما في هذه الحضارة من مظاهر الفن والرقة والجمال التي كانت كلها من احسن المميزات التي طبعت الشعر الاندلسي وميزته عن الشعر في المشرق ، كما لاحظنا ذلك عند الحديث عن هذه المميزات بين الأدبين الأندلسي والمشرقي .

والواقع ان الحنين والتعلق بالشعر الجاهلي لم يكن خاصاً بابن هانيء بل كان قدراً مشتركاً بين ادباء الأندلس والمغرب عموماً ، وذلك لأنهم يرون في الشعر الجاهلي تراثاً لأجدادهم لا يمكن التخلي عنه ، وهم لا ينظرون اليه هذه النظرة فحسب -كما يفعل ذلك الأدباء المعاصرون وفي طليعتهم الشابي- بل هم يعتبرونه المنبع الاصلي الذي يحتوي على كل عناصر الذوق العربي الاصيل وهو المثل الأعلى الذي يحتذى في الانتاج الشعري . ومن هنا كان شعر ابن هانيء على الخصوص متأثراً بالشعر الجاهلي من حيث قوة الاسلوب وخشونة الألفاظ حتى ليبدو وكأنه شعر بداوة لا شعر حضارة ، وان دل هذا على شيء فإنما يدل على ان شاعرنا قد عاش في بيئته الثقافية أكثر مما عاش في بيئته الطبيعية ومحيطه الاجتماعي ويمكن القول بعبارة أدق ان ابن هانيء لم يهتم في شعره بروعة الخيال ودقة التمثيل ورقة الألفاظ بقدر ما اهتم بضخامة الألفاظ وقوة التركيب التي تؤدي احياناً الى ان يكون الكلام من النوع الوحشي وتشيع في شعره كثيراً القعقعة والصدى الضخم الذي ليس وراءه كبير معنى كقوله :

أصاخت فقالت : وقع اجرد شيظم وشامت ، فقالت لمع ابيض خيذم
وما ذعرت إلا بجرس حليها ولا رمقت إلا برى في مخدم

في هذه القصيدة حاول ان يقلد معلقة عنترة تقليداً واضحاً ، على ان هذا التقليد للشعر الجاهلي لم يكن شاملاً لكل اشعاره وإنما كان في الدرجة الاولى في مدائحه ، أما اشعاره الاخرى فرغم ما فيها من طابع شاعريته العام فانها تحتوي على بعض مميزات عصره الاندلسي المغربي من رقة في التعبير وموسيقى في اللفظ واعتماداً على المحسنات البديعية كقوله في الغزل :

وسنان من وسن الملاحة طرفه وجفونه ، سكران من خمر الصبا

خصائص شعره :

هذه اولى خصائص شعر ابن هانيء وهي محاولته تقليد الشعر الجاهلي

وخاصة في المدح وتصوير الحروب . أما الناحية الثانية من خصائص شعره فهي التكلف الذي يشعر به كل من قرأ شعره وتمعن في اسلوبه . فهو يعتمد فيه على الجهد والصنعة الفنية اكثر مما يعتمد على الموهبة الشعرية والسليقة الطبيعية ولهذا يمكن اعتبار ابن هانيء من بين الشعراء الذين يجهدون انفسهم في نظم الشعر ويتحملون في ذلك مشقة وضنى كبيرين ، ولعل هذا التصنع هو الذي سبب الفشل في بعض اشعار ابن هانيء وان كان التعب والجهد في عمل الشعر لا يعد تصنعاً الا اذا كان فاشلاً ، لأننا نجد شعراء بذلوا هم بدورهم جهوداً وعناية شاقة في نظم أشعارهم ومع ذلك جاءت أشعارهم في غاية من الروعة والكمال ويمكن ان نعتبر من بين هؤلاء أبا العلاء المعري وأبا تمام وزهيراً ، الذين عنوا بشعرهم عناية كبيرة وقل ان كان الفشل من نصيبهم .

أما ابن هانئ فان الفشل يصاحبه في كثير من الاحيان ولا نقول في اكثر الاحيان لذلك نجده يميل الى الاطناب والتكرار واعادة معانيه بألفاظ متنوعة واكساء المعنى البسيط بألفاظ وتراكيب ضخمة ، وهذا ما بغضه الى المعري فكان يقول عنه « شعره كالرحى تطحن نفسها » أي ان فيه كثرة ألفاظ تدور حول نفسها ولا تلد معنى جميلاً .

وفي هذا يختلف ابن هانيء اختلافاً واضحاً عن المتنبي ، فان الشاعر السوري كان الى ذلك قوي المعنى قوي الروح عميق الفكرة .

وقد حاول ابن هانيء ان يستمد من المتنبي هذه القوة المعنوية في شعره ولكنه لم يصل اليها وبقي متدلياً في الألفاظ في أغلب ميادين الشعر ما عدا الغزل الذي كان المتنبي فيه قليل الحظ جافي الطبع بينما كان ابن هانيء مولعاً بالنساء اكثر من المتنبي وكان اعرف منه بموطن جمالهن .

أما الموطن البارز الذي يظهر فيه تفوق المتنبي عن ابن هانيء فهو موطن الحكمة والحكمة شائعة في شعر ابن هانيء وتعد من خصائص هذا الشعر التي تمثل

طابعه العام ، ولكنها لم تصل الى مستوى الحكمة عند المتنبي .. وابن هانىء معذور في ذلك لأنـه ليس هو الوحيد الذي فشل في ادراك مستوى المتنبي في الحكمة ، اذ أن المتنبي وحده في الشعر العربي .

آراء النقاد :

ونختم هـذه الدراسة عن ابن هانىء بآراء النقاد فيه : فنجدهم مجمعين على الاعتراف بأنه من شعراء الطليعة الاولى في العربية ، ويختلفون في النواحي التي جعلت كل واحد منهم يضعه في هذه المنزلة فالمعري يؤاخذه على فراغ معانيـه ولكنه يعترف بأنه مع ذلك من الشعراء الجيدين، وابن خلكان يضعه في الطبقة الأولى من شعراء المغرب . ويقول انه أشعرهم على الاطلاق ، وان كان يؤاخذه على افراطه في المدح ، ويعتبره ابن شرف من اعلام الشعراء ، امـا ابن رشيق فقد حلل ناحية القوة وناحية الضعف عند ابن هانىء تحليلاً مصيباً وقال: « انه يبهر بألفاظه اكثر مما يبهر بمعانيه » .

أما في نظرنا نحن في هذا العصر فان مقاييس الأدب قد تغيرت عندنا بالنسبة لما كانت عليه عند النقاد الأقدمين واصبحنا لا نعجب كثيراً بمزايا ابن هانىء التي كان يقدرها القدماء وهي التفنن في محسنات البديع والاغراب في اللغة والالتجاء الى التطويل في الكلام ، بل ان هذه الامور كلها اصبحت عندنا اليوم تعـد من النقائص في الفن . فنحن نحب الشعر المليء بالمعاني المقتصد في الالفاظ البسيط في المحسنات المقصودة ، والذي لا يخلو مع ذلك من رنة موسيقية ومن خفـة في الجرس، لذلك لا نستطيع ان نضع ابن هانىء في درجة ابن الرومي لأن هـذا الاخير اعمق منه فكرة وأغزر تصوراً . ولا نستطيع ان نضعه في مرتبـة المتنبي ؛ لأن هـذا الاخير اكثر منه حرارة واقوى في المعنى ، ولا نستطيع ان نضعه في مرتبة البحتري ، لأن هـذا الاخير اسهل منه طبعاً واجرى في القريحة .

ومع هـــذا فلسنا نقصد ان نضع ابن هانىء في المرتبة الدنيا من الشعراء لأننا نجد عنده مزايا اخرى جليلة وهي : اولاً – ان شعره سجل حافل لتاريخ البطولة الاسلامية العربية في المغرب ، وثانياً – ان ابن هانىء كان في مستوى من امتلاك اللغة والتصرف فيها مكنه من تسجيل هذه الحقبة من تاريخنا الحافل تسجيلاً حياً، وان يصور اساطيل الفاطميين وحياتهم الضخمة وسلطانهم العظيم ، كذلك سجل ابن هانىء حسنة اخلاقية وهي انه لم يتذلل في شعره رغم مدحه وغلوه فيه وانما بقي محتفظاً بكرامته ورجولته .

وعندما نعيب ابن هانىء بنقص فـني في شعره حسب مقاييسنا اليوم ينبغي ان لا ننسى انه كان بالنسبة لعصره يمثل مستوى راقياً جـــداً في الفن الشعري وكانوا يعتبرونه بحق اعظم شعراء المغرب ومن اعظم شعراء العربية .

إبن رشيق

(٣٨٥ – ٤٥٦ هـ = ٩٩٥ – ١٠٦٣ م)

حياته :

من المشهور عن ابن رشيق انه قيرواني كما يدل على ذلك لقبه ، ولكن لاستاذ .ح.ح. عبدالوهاب ، يقول انه فحص وبحث طويلاً في حياة هذا الكاتب لمغربي الكبير ، فتبين له امران شاع عكسهما عند المتحدثين عن ابن رشيق :

اولاً – ان ابن رشيق ليس من اصل رومي ، وليس ابن مملوك كما شاع عنه في كتب تاريخ الادب ، وانما المرجح انه من اصل عربي لان اسم رشيق هو اسم عربي محض كان شائعاً في القبائل العربية التي انتشرت في انحاء المغرب .

ثانياً – ان مولده لم يكن بالمهدية ولا بالقيروان كما توهم كثير من مؤرخي الادب بل ولد ونشأ وتعلم في مدينة « المسيلة » التي كانت تسمى اذ ذاك « بالمحمدية » نسبة الى محمد بن المهدي العبيدي الذي اسسها بالجزائر سنة ٣١٥ هـ .

وعندما بلغ العشرين من عمره واكمل ثقافته الاولى ، رحل الى القيروان لاتمام ثقافته العالية ، وكانت القيروان يومئذ تحتل مكانة عظيمة في الازدهار

الثقافي بل كانت بالنسبة للمغرب بمثابة بغداد في المشرق .

ووجد ابو علي الحسن بن رشيق الازدي في مدينــة القيروان من منــاهل الادب والعلم ما اشبع نهمه وغذى ذكاءه المفرط ، وقــد تحدث ابن رشيق عن شيوخه الذين تتلمذ عليهم وتأثر بهم ، ومنهم عبـــد الكريم النهشلي في الادب والنقد ، وابو عبدالله الخشني الضرير في اللغة والادب ، وكان ابن رشيق معجباً به اشد الاعجاب اذ قال عنه : « كان مشهوراً بالنحو واللغة جداً ، مفتقراً اليه فيهما ، بصيراً بغيرهما ، ولم يرقط ضرير اطيب منه نفساً ، ولا اكثر منــه حياء مع دين وعفة . ادركته وقد جاوز التسعين والتلاميذ يكلمونــه فيحمر خجلاً ، ولا غنى لاحد من الشعراء الحذاق عن العرض عليه والجلوس بين يديه » .

ولم يلبث ابن رشيق ان جلب الانظار اليه ، لصواب ملاحظاته ، وعلامات ذكائه الشديد ، وحزمه في طلب العلم فسمع به المعز بن باديس فطلبه فكان ابن رشيق من احسن من عرفهم المعز من رجالات العلم في عصره ، وكان لا بــد ان يحـــاط ابن رشيق – شأن كل عبقري في بلاط الملوك – بأجواء من الحسد والدسائس ، ولكن ابن رشيق استطاع ان يتلافى الاصطدام بحساده ، لمـــا اظهره من وفاء واخلاق رفيعة نحو المعز ، حتى ان المعز لما انتقل الى المهدية بعد خراب القيروان اصطحب الشاعر معه ، وبذلك كان ابن رشيق صاحب اول مكانة عند المعز .

ولما توفي المعز سنة ٤٥٣ بقي ابن رشيق في خدمة ابنه تميم، غير ان الاحوال في عهد هذا الامير، لم تلبث ان ساءت جداً ، ولم يعد ابن رشيق يطيق البقاء في ظل دولة تداعت الى الانهيار . فهاجر الى جزيرة صقلية ولكنه وجــد امامه ابن شرف ، وكانت العلاقات بينهما يسودها التوتر ولكن عند التقــائهما في دار الغربة نسيا احنهما وحن كل منهما للآخر ، غير ان ابن شرف لم يستطب الاقامة في صقلية وقرر الرحيل الى الاندلس وعرض على صاحبه ان يترافقا في الرحيل

اليها ، فرفض ابن رشيق لما كان يسمعه عن انهيار الدولة في الاندلس وانقسامها الى ملوك وطوائف ومـا ادى اليه من سوء في الحالة السياسية ، فقال في ذلك بيتية المشهورين وهما :

مما يزهدني في ارض اندلس
سماع معتضد فيها ومعتمد
القاب سلطنة في غير موضعها
كالهر يحكي انتفاخا صولة الاسد

وبقي في الجزيرة الى ان توفي سنة ٤٥٦ بعد أن اقام بهـا ثلاث سنوات قضى معظمها في مدينة « مأزر » وبها توفي ، وكان في حوالي السبعين عاماً .

شخصيته :

كان ابن رشيق من الناحية الخلقية نبيل العاطفة فاضل النفس طاهر الضمير . وقد اشتهر بوفائه وبعاطفته الوطنية ، وذلـك يظهر في حالة الحزن التي لازمته بعد خراب القيروان ، وبقيت معه الى آخر حياته . وزاد من شعوره بالألم مـا آل اليه امر العرب في اواخر ايامـه من تفكك في الداخل وضعف نفوذهم في البحر المتوسط ، فقال في ذلك :

لا تعجبن لراسي كيف شاب اسى ... واعجب لاسود عيني كيف لم يشب
البحر للروم لا يجري السفين بـه ... الا على غـرر ، والـبر للعرب

وكان يتألم لحـالة الادباء في عصره ، ويرى ان مجتمعه لم ينصفهم حقهم ، وفي هذا يقول :

اشقى لعقلك ان تكون اديبـا ... او ان يرى فيـك الورى تهذيبا
مـا دمت مستوياً ففعلك كلـه ... عوج ، وان اخطأت ، كنت مصيبا

والى جانب هذه الاخلاق العالية التي تحلى بها ابن رشيق ، كان ذا شخصية ثقافية من الطراز الاول ، جديرة بان تضعه الى صف الخالدين من الادباء العرب امثال الجاحظ والمتنبي وابي العلاء وابن خلدون .

كان مثالاً قوياً للادب بأوسع معانيه. متضلعاً في جميع مواد الادب من لغة راسخة وذوق رفيع ، ونقد دقيق وحكي نزيه . وهذا ما جعل ابن خلدون يقول عن كتابه العمدة : « هو كتاب انفرد بهـذه الصناعة (النقد) واعطاءها حقها ولم يكتب فيها احد قبله ولا بعده مثله ». وقال عن مكانته الشعرية « انه أشعر شعراء عصره » .

مؤلفاته :

ترك ابن رشيق ثروة عظيمة من الكتب في مختلف فنـون الادب ، وهي اللغة ، والنقد ، والتراجم لمشاهير الادباء . والى جانب هـذا الادب الموضوعي ترك ابن رشيق ثروة من الادب الانشائي تتمثل في اشعاره ورسائله الادبية .

ومن كتبه نذكر « قراضة الذهب في نقد اشعار العرب » وقـد اعتنى فيه بالخصوص بسرقات الشعراء ، وكتاب « الانموذج » ، وكتاب « الشذور » وهمـا في اللغة ، وكتاب « انموذج الزمان في شعراء القيروان » ، وهو كتاب يبدو ان له قيمة ادبية خاصة ، لان عدداً كبيراً من مؤلفي كتب الادب القدماء قـد اقتبسوا منه واشاروا اليه ولكنه مفقود ، ومما يؤسف له ان هـذا الكتاب من الكتب النادرة التي احتوت على تاريخ الادب واعلامه في المغرب .

وله عـدة كتب اخرى وفي مقدمتها كتاب « العمدة » وكتاب « قراضة الشعر .. » وهما الكتابان الوحيدان اللذان طبعاً ، وقد انفرد كتابه « العمدة » بالشهرة والانتشار وقامت عليه مكانة ابن رشيق نفسه ، لما له من قيمة ممتازة

بين سائر الكتب التي الفت بالعربية في النقد الادبي ولذلك سنفرد لهذا الكتاب بحثاً خاصاً .

العمدة :

يقع هذا الكتاب في جزئين ، وابوابه تستوعب البحث في كل القضايا المتعلقة بالادب كمنزلة النثر والشعر والدفاع عن الشعر واثره في حياة العرب وفي حياة الشعراء، وذكر مشاهير الشعراء ومن برز منهم في ناحية من نواحيه، وكتعريف الشعر وانواعه واختلاف المذاهب الجمالية فيه ومشكلة الصنعة والطبع وما ورد فيهما من اقوال ، وكقيمة الاوزان والقوافي ووجوه الصواب والخطأ فيها ، واختلاف طباع الشعراء في طلب الشعر وتخير اوقات استلهامه، وكبحث القضايا البلاغية من ايجاز واطناب وبديع واستعارة الى آخره ... وكمسائل اخرى في منتهى الطرافة ، كالفرق بين المبالغة والغلو والايغال في معاني الشعر ، وبحث الحشو وفضول الكلام والركيك والمستضعف وكالبحث في متى يحسن التكرار ومتى يستهجن . وكبحوثه الطريفة فيما يحمل من صياغة حسب الموضوع بحيث يجب ان تختلف لغة الشاعر من الغزل الى المدح مثلاً . وكبحثه في المعاني المستحدثة وفيما تفرد به القدماء الى آخره .

وهو في كل مسألة يكثر من الاستشهاد الى جانب التحليل ويأتي بالأمثلة الى جانب الاحكام ويذكر آراء غيره في كل مشكلة ويذكر رأيه الخاص تاركاً للقارىء مجالات واسعة للتأمل والنظر . ومن ذلك قوله في باب الايغال : «ومن أسمائه ايضاً الاغراق والافراط ، ومن الناس من يرى ان فضيلة الشاعر انما هي في معرفته بوجوه الاغراق والغلو ، ولا أرى ذلك الا محالاً لمخالفته الحقيقة وخروجه عن الواجب والمتعارف؛ وقد قال الحذاق : خير الكلام الحقائق فان لم تكن فما قاربها وناسبها، واحسن الشعر ما قارب فيه القائل اذا شبّه، واحسن

منه ما أصاب الحقيقة فيه ... » ثم علق ابن رشيق على هـــذا الرأي بقوله : « وأصح الكلام عندي ما قام عليه الدليل[١] » .

ومن طرائف النقد عند ابن رشيق في كتاب « العمدة » تتبعه لألفاظ معينة تكثر عند هذا الشاعر او ذاك ، ومن هذا القبيل قوله في باب « الحشو وفضول الكلام » :

« ومـمـا يكثر به حشو الكلام : أضحى ، وبات ، وظل ، وغدا ، وقد ، ويوماً ، واشباهها . وكان ابو تمام كثيراً ما يأتي بهـا . ويكره للشاعر استعمال ذا وذي ، والذي وهو وهذا وهذي ، وكان ابو الطيب مولعاً بها مكثراً منهـا في شعره حتى حمله حبه فيها على استعمال الشاذ وركوب الضرورة [٢] » .

واذا كان التكرار مبغوضاً عند الناس بصفة لا تفصيل فيها، فان ابن رشيق يضع للتكرار قواعد واصولاً يحسن بمقتضاها احياناً ويستهجن احياناً اخرى ، وفي هذا يقول ابن رشيق :

« وللتكرار مواضع يحسن فيها ، ومواضع يقبح فيهـا ؛ فأكثر مـــا يقع التكرار في الألفاظ دون المعاني ، وهو في المعاني دون الالفاظ أقل، فاذا تكرر اللفظ والمعنى جميعاً فذلك الخذلان بعينه . فلا يجوز للشاعر مثلاً ان يكرر اسماً الا على جهـة التشوق والاستعذاب اذا كان في تغزل او نسيب كقول قيس ابن ذريح :

ألا ليت لبنى لم تكن لي خلة ولم تلقني لبنى ولم أدرِ ما هيا ؟

او كقول ابي الاسد في المدح :

مواقع جود الفيض في كل بلدة مواقع ماء المزن في البلد القفر

---

(١) العمدة ج ٢ ص ٥٧ — ٥٨ .
(٢) العمدة ج ٢ ص ٦٧ .

او كقول الخنساء :

وان صخراً لمولانا وسيدنا وان صخراً اذا نشتو لنحار
وان صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار[1] »

ويظهر من هذه الاستشهادات ونحوها ان ابن رشيق يعتمد على ذوق رفيع في بناء اصول النقد ، ولكنه يعتمد ايضاً على قواعد وقوانين ، يعسر ضبطها لتداخل الذوق الشخصي فيها مع القواعد الموضوعية ، غير اننا مع ذلك يمكن ان نجد حدوداً وقواعد عامة قام عليها ما يمكن ان نسميه : « اصول النقد عند ابي رشيق » وهي :

اولاً – التحليل : فابن رشيق قبل ان ينتقد القطعة او يقرظها يحاول ان يحللها ، وهي صفة لم تكن موجودة في النقد العربي القديم الذي كان يبادر باعطاء الحكم بالجودة او الرداءة قبل تحليل النص الذي يحكم فيه . وتبدو فائدة التحليل في ان الناقد يوضح بتحليله جوانب الجمال او القبح والخطأ او الصواب في النص الذي ينقده ، مما يساعد القارىء على تكوين ملكة شخصية في الحكم لا يبقى فيها عالة على الناقد ، كما يكون النقد بواسطة التحليل اقرب الى النزاهة والصواب منه الى التحيز والخطأ . وفي الامثلة التي أوردناها سابقاً ما يساعد على ايضاح هذه الطريقة التحليلية التي سار عليها ابن رشيق في نقده .

ثانياً – الاكثار من الشواهد وتنويعها مما يزيد الحقائق جلاء ووضوحاً ، ويدعم الاحكام التي يصدرها الناقد حتى تكون صالحة لأن تطبق على ما شابهها من الامثلة او الموضوعات .

ثالثاً – ذكر احكام النقاد الآخرين ، وفي هذا المبدأ من النقد عند ابن رشيق

(١) العمدة ج ٢ ص ٧٠ — ٧١ .

ما يدل على سعة الاطلاع من ناحية ، ويمكن القارىء من ناحية اخرى من الاطلاع على آراء مختلفة يكون له فيها مجال الخيار واسعاً ، ويدلنا حرص ابن رشيق في ذكر آراء النقاد الآخرين على تشبعه بالنزاهة العقلية التي هي اصل من اصول النقد الحديث ، وقد طبق هذا المبدأ على كل موضوعات كتابه .

رابعاً – المقارنة : وهي عند ابن رشيق عنصر اساسي يقوم عليه النقـــد والمفاضلة في المعـــاني والافكار وفي الاسلوب والعبارة مما يزيد عناصر الجمـــال والصواب وضوحاً وبروزاً في ذهن القارىء .

ومن أمثلة المقارنة بين الشعراء وذكر احكام النقاد الآخرين مع ذكر احكامه هو ، قوله :

« ومن الشعراء من لا يجيـــد الابتداء ولا يتكلف له ثم يجيد باقي القصيد واكثرهم فعلاً لذلك البحتري ، كان يضع الابتداء سهلاً ويأتي به عفواً ، وكلمـا تمادى قوي كلامه ، وله من جيد الابتداءات كثير لكثرة شعره ، والغالب عليه ما قدمت . غير ان القاضي الجرجاني فضله بجودة الاستهلال – وهو الابتداء – على ابي تمام وابي الطيب ، وفضلها عليه بالخروج والخـاتمة ، ولست أرى لذلك وجهاً الا كثرة شعره كما قدمت .

... فأما الحاتمي فانه يغض من ابي عبـادة غضاً شديداً ويجور عليه جوراً بيناً لا يقبل منه ولا يسلم اليه [1] » .

ثم يدعم ابن رشيق حكمه بأمثلة متعددة من مطالع شعر ابي تمام فيقول :

« .. وكان ابو تمام فخم الابتداء له روعة وعليه ابهة كقوله :

الحق ابلج والسيوف عوار   فحذار من اسد العرين حذار

(١) العمدة ج ١ ص ٢٠٤ – ٢٠٥ .

وقوله :

السيف اصدق انباء من الكتب   في حده الحد بين الجد واللعب

خامساً : الذوق الشخصي ، ويظهر هذا الاصل في نقـد ابن رشيق ظهوراً بارزاً ، في اختياره للنصوص وفي مقارنته بينهـا ، ولكنه يظهر اكثر من ذلك في اسلوب التحليل الذي يعتمده ابن رشيق في اظهار جوانب الكمال او النقص في النص سواء من ناحية اللفظ او المعنى .

والذوق الشخصي عند النـاقد الادبي امر لا بد منه ، سواء في ذلك النقـد الادبي القديم او الحديث ، وكل ما يوجد من فرق بين القديم والحديث ان النقـد الادبي عند العرب كان يعتمد على الذوق الشخصي وحده . بينما يعتبره النقـــد الحديث اصلاً من عدة اصول اخرى يقوم عليها النقـد ، وهي التي ذكرنا بعض ما يوجد منها عند ابن رشيق .

وخلاصة القول فان كتاب العمدة يعـد اهم ما بلغنا من تـآليف ابن رشيق الادبية ، وكذلك يعتبر اهم كتاب في النقد وضعه النقاد العرب القدماء ، لمـــا بلغه المؤلف في هذا الكتاب من كمال في البحث ودقة في عرض الحجة وترتيب الأدلة ، واستخراج الافكار وتقريع الابواب والحكم على الجيـد والرديء من الادب ، والتفنن في التحليل .

وزيادة على ذلك فان في كتاب العمدة ابواباً اخرى لا تقتصر على الشعر، بل يتطرق فيها الكاتب بأصول نقـــده الصائب الى انواع النثر كالخطابة والرسالة والتأليف الخ ...

واخيراً لكي تظهر لنا شخصية ابن رشيق الجبارة في هـذا الكتاب ، نختم بحثنا عنه بوصية قدمها للشعراء خاصة وللأدباء بوجه عام ، قال فيها بعد ان ذكر ما للمحدثين من معان مبتكرة اعترف لهم فيها بفضلهم على من تقدمهم ، ثم قال :

« هذا على اني ذممت الى المحدثين انفسهم في أماكن في هذا الكتاب، وكشفت لهم عوارهم ، ونعيت لهم اشعارهم . وليس هذا جهلاً بالحق ، ولا ميلاً الى ثلبات الطرق ، ولكن غضاً من الجاهل المتعاطي والمتحامل الجافي ، الذي اذا اعطي حقه تعاطى فوقه وادعى على النـــاس الحسد ، وقال : انا ولا احد ! والى كم أعيش لكم ، واي علم بين جنبي لو وجدت مستودعاً . فــاذا عُرض في شعره بسؤال عن معنى فاسد ومتهم ، او طولب بحجة في لحنــة او شاذ ، او نوظر في كلمة من ألفـــاظ العرب مصحفة او نادرة ، قال : هكذا اعرف !.. وكأنما اعطي جوامع الكلم. حاشا لله واستغفر. بل هو العمى الاكبر والموت الأصفر».

ابن شرف

(٣٩٠ - ٤٦٠ هـ = ٩٩٩ - ١٠٦٧ م)

حياته :

يعد ابن شرف من وجوه الادب الزاهية في القيروان في القرن الخامس، فقد تلقى العلم عن اساتذة كبار كأبي الحسن القابسي ، وابراهيم الحصري ، ومحمد القزاز . ثم الحق بديوان المعز بن باديس ، حيث التقى بابن رشيق فتعرف به كما تعرف بعدد آخر من الكتاب والشعراء .

وفي هذا الجو تنافس الشعراء والكتاب في الانتاج ، يشجعهم المعز بعطاياه الكثيرة، ولكن المنافسة بين ابن شرف وابن رشيق كانت ابرز واشد استفحالاً حتى ادت بهما الى المهاجاة والخصومة. وكان المعز نفسه – على ما يظهر – يرغب في اثارة اسباب المنافسة بينهما في مجالسه الادبية ، ويقوم هو بدور الحكم احياناً في المفاضلة بينهما .

وظلت حياة ابن شرف في هذا الجو الادبي الخصب ، لا يعكرها الا بعض متاعب المنافسة البريئة ، حتى هجم الهلاليون على القيروان ، فقضوا على مظاهر

النشاط والحضارة في القيروان ، ففر ابن شرف كما فر ابن رشيق ومن نجا من علمائها وادبائها وفر المعز نفسه ، ولجأ الى المهدية . وقد سبق ان تحدثنا عن صدى خراب القيروان في شعر شعرائها ومنهم ابن رشيق ، ولابن شرف في هذه الحادثة قصيدة تعد من جيد الشعر ، منها قوله :

...اطفالها ما سمعت بالفلا قط فعادت في الفلا دارها
ولا رأت ابصارها شاطئاً ثم جلت باللج ابصارها
وكانت الاستار آفاقها فعادت الآفاق استارها
ولم تكن تلحظها مقلة لو كحلت بالشمس اشفارها
فأصبحت لا تتقي لحظة الا بأن تجمع اطمارها...

وظل ابن شرف مع المعز في المهدية مدة ثم ارتحل الى صقلية ، ثم توغل في الرحلة الى الاندلس . وقد رأينا في الحديث عن ابن رشيق انه رفض الذهاب مع زميله ابن شرف ، زاهداً في ارض الاندلس لما فيها من القاب يحكي اصحابها انتفاخ الاسد . اما ابن شرف فكانت له فلسفة اخرى في الحياة ، يقول عنها :

ان ترمك الغربة في معشر قد جبل الطبع على بغضهم
فدارهم ما دمت في دارهم وارضهم ما دمت في ارضهم

وهي فلسفة لا يقرها ابن رشيق ولا يوافق عليها زميله في شيء .

وانتقل ابن شرف بين ملوك الطوائف بالاندلس يمدحهم ويداريهم ويرضيهم كما قال ، حتى سنة ٤٦٠ حيث توفي في مدينة اشبيلية الشهيرة .

مؤلفاته :

ترك ابن شرف مؤلفات كثيرة لم يصلنا منها الا القليل ، ومنها :

١ – كتاب « ابكار الافكار » ويحتوي على انتاجه الخاص من نثر ونظم ، وهو مفقود ، ولكن توجد فقرات منه مشلتة في بعض كتب الادب .

٢ – كتاب « اعلام الكلام » وهو كتاب جمع فيه طرائف من الادب وهو مفقود ايضاً .

٣ – « رسائل الانتقاد » وهو كتاب نشره الاستاذ .ح.ح. عبد الوهاب في دمشق سنة ١٩١١ ، واختار هـــذه الرسائل الاستاذ محمد كرد علي ، ونشرها ضمن كتابه « رسائل البلغاء » .

وهذا الكتاب كما قـــال عنه ابن شرف « هو احاديث مختلفة الالوان ، فيها اخبار فصيحات الكلام ، يروق الصغير معناها والكبير مغزاها » .

وهي عبارة عن مقامتين كتبتا باسلوب السجع المعروف في المقامات واتخذ لها الكاتب شخصاً خيالياً دعاه : ابا الريان الصلت بن السكن من بلد سلامان: وقـــد تحدث الكاتب فيها على لسان بطله عن مشاهير الشعراء القدامى فانتقد بعضهم باسلوب خفيف مع ذكر حسناتهم والاشادة بهـــا ولكنه استعمل ايضاً لهجة فيها عنف وقساوة في النقد .

ومن آرائه في بعضهم قوله :

« واما ابن الرومي فشجرة الاختراع وثمرة الابتداع ، وله في الهجاء ، مـــا ليس له من الاطراء . فتح فيـــه ابواباً ووصل منه اسباباً ، وخلع منه اثواباً ، وطوق فيه رقاباً . يطول عليها حسابه ، ويمحق بهـــا ثوابه . ولقد كان واسع المطن لطيف الفطن . الا ان الغالب عليه ضعف المريرة ، وقوة المرة » .

ومن قوله في المتنبي :

« واما المتنبي فقد شغلت به الالسن ، وسهرت في اشعاره العيون الاعين .

وكثر الناسخ لشعره ، والاخذ لذكره ، والغائص في بحره ، والمفتش في قعره ، عن جمانه ودره. وقد طال فيه الخلف ، وكثر عنه الكشف . وله شيعة تغلو في مدحه وعليه خوارج تتعاون في جرحه . والذي اقول: ان له حسنات وسيئات وحسناته اكثر عدداً ، واقوى مدداً ، وغرائبه طائرة ، وامثاله ثائرة . وعلمه فسيح ، وميزه صحيح ، يروم فيقدر ، ويدري ما يورد ويصدر » .

ومما قاله عن بعض شعراء المغرب رأيه في ابن هانىء الذي قال عنه :

« واما ابن هانىء الاندلسي ولادة ، القيرواني وفادة وافادة ، فرعدي الكلام بردي النظام ، متين المباني ، غير متين المعاني، يجفو بعطفها عن الاوهام، حتى يكون كنقطة النظام ، الا انه اذا ظهرت معانيه في جزالة مبانيه ، رمى عن منجنيق ، يؤثر في النيق، وله غزل فقري ، لا عذري، لا يقنع فيه بالطيف ولا يشفع فيه بغير السيف . وقد نوه به ملك الزاب [1] وعظم شأنه باجزل الثواب ، وكان سيف دولته ، في اعلاء منزلته ، من رجل يستعين على صلاح دنياه ، بفساد اخراه ، لرداءة عقله ورقة دينه ، وضعف يقينه . ولو عقل لم تضق عليه معاني الشعر ، حتى يستعين عليها بالكفر » [2] .

وهكذا يتبين لنا من احكام ابن شرف الادبية ونقده للشعراء ، انه رغم الجهد الذي يبذله في اعطاء احكام صحيحة عن منازل الشعراء وقيمة ادبهم الا انه يضيع في انتقاء التعابير اللغوية ، ويغفل عن التدقيق في الافكار التي يقيم عليها احكامه ، كما فعل زميله ابن رشيق في العمدة ، كذلك لا نستطيع ان نجد وجهاً من وجوه الارتباط او العلاقة بين الكمال الذي بلغه ابن رشيق في نقده الادبي والذي بينا اصوله وقواعده اثناء الحديث عنه ، وبين الاحكام

---

(١) هو المعز لدين الله الفاطمي .

(٢) رسائل الانتقاد ص ٢٢ .

العامة الخالية من الضبط والتحليل والضائع صوابها القليل في امواج من السجع الركيك والالفاظ الغريبة .

ومع هـذا فيلبغي ان لا نغمط ابن شرف حقه في الشعر ، اذ هو يعد من الشعرا المجيدين في المغرب بسلاسة معانيه وقوة تركيبه ، ودقة وصفه ووضوح افكاره .

وقد مر بنا مقطع من قصيدته التي رثا بهـا القيروان سنة ٤٤٩ ونذكر هنا نتفا من شعره الجيد ، فمن قوله في الغزل :

ولقد نعمت بليلة جمد الحيا بالارض فيهـا والسماء تذوب
والكاس كاسية القميص كأنها ـ لوناً وقدراً معصم مخضوب
هي وردة في خده وبكأسها تحف القناني عسجد مصبوب
مني اليه ومن يديه الى يـدي فالشمس تطلع بيننا وتغيب

ومن قوله عن ذكرياته بالقيروان وشوقه الى حياته الماضية فيها :

يا قيروان ! وددت اني طائر
فأراك رؤية باحث متـأمل
يا لو شهدتك اذا رأيتك في الكرى
كيف رجاع صباي بعـد تكهل
لا كثرة الاحسان تلسي حسرتي
هيهـات تذهب علتي بتعلل

القديم والحديث :

ولابن شرف كما لغيره من الادباء والنقاد المعاصرين له والمتقدمين عنه ، كابن رشيق والحصري ، وكالجاحظ وابن قتيبة ، رأي في مشكلة القديم والحديث في الشعر ومشكلة اللفظ والمعنى ، يقول فيه :

... اول مـــا عليه تعتمد واياه تعتقد ، ان لا تستعجل باستحسان ولا باستقباح ، ولا باستبراد ولا باستملاح ، حتى تنعم النظر ، وتستخدم الفكر ، واعلم ان العجالة في كل شيء موطىء زلوق ، ومركب زهوق ، فان من الشعراء ما يملأ لفظه المسامع ، ويرد على السامع منه قعاقع . فلا يدعك شماخة مبناه ، وانظر الى ما في سكناه من معناه . فان كان في البيت ساكن ، فتلك المحاسن ، وان كان خالياً فأعدده جسماً بالياً . وكذلك اذا سمعت الفاظاً مستعملة وكلمات مبتذلة ، فلا تعجل باستضعافها ، حتى ترى ما في اضعافها . فكم من معنى عجيب في لفظ غريب . والمعاني هي الارواح ، والالفاظ هي الاشباح ، فـــان حسنا فذلك الحظ الممدوح ، وان قبح احدهما فلا يكن الروح .

قـــال : وتحفظ عن شيئين احدهما : ان يحملك اجلال القديم المذكور على العجلة باستحسان ما تستمع له ، والشـــاني : ان يحملك اصغارك المعاصر المشهود على التهاون بمـــا انشدت له ، فان ذلك جور في الاحكام وظلم من الحكام ، حتى تمحص قولهما ، فحينئذ تحكم لهما أو عليهما . وهذا باب في اغتلاقـــه استصعاب ، وفي صرف العـــامة وبعض الخاصة عنه اتعاب . وقد وصف تعالى في كتابه الصادق تشبث القلوب بسيرة القديم ونفارها من المحدث الجديد ، فقـــال حاكياً لقولهم : « إنا وجدنا آباءنا على أمة » وقـــال : « لن نعبد إلا مـــا وجدنا عليه آباءنا » .

وقد قلت انت :

أغري الناس بامتداح القديم ... وبذم الجديـــد غير الذميم
ليس إلا لأنهم حسدوا الحي ... فرقوا على العظـــام الرميم

وقلت في هذا المعنى :

قل لمن لا يرى المعاصر شيئاً ... ويرى للأوائـــل التقديمـــا
ان ذاك القديم كان جديداً ... وسيغدو هذا الجديد قديمـــا

فلا يرعك ان تجري على منهاج الحق في جميع الخلق ، فبه قامت السموات والارض ، وبه احكم الابرام والنقض » [1] .

وابو عبدالله محمد بن شرف لم يأت بجديد في هذا الموضوع ، وانما هو يوافق فيه غيره من نقاد الأدب في عصره وحتى من سبقه ، فقد قـــال ابن رشيق في هذا المعنى :

« كل قديم من الشعراء فهو محدث في زمانه بالاضافة الى من كان قبله ... »

وقال ايضاً :

« وانما مثل القدماء والمحدثين كمثل رجلين ، ابتدأ هذا بنـــاء فأحكمه واتقنه ، ثم اتى الآخر فنقشه وزينه فالكلفة ظاهرة على هـذا وان حسن ، والقدرة ظاهرة على ذلك وان خشن » .

ولابن قتيبة ايضاً رأي اكثر دقة ووجاهة ، حيث قال :

« ... لم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خص قوماً دون قوم ، بل جعل الله ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر ، وجعل كل قديم حديثاً في عصره ... » [2]

---

(١) رسائل الانتقاد ص ٢٣ - ٢٤

(٢) الشعر والشعراء ج ١ ص ٧

المراجع

١ — ابن رشيق : العمدة — القاهرة — ١٩٣٤

٢ — ابن شرف : رسائل الانتقاد — تحقيق وشرح ح. ح. عبد الوهاب — دمشق — ١٩١١

٣ — ابن زيدون : ديوان شعر — الطبعة الاولى — القاهرة ١٩٣٢

٤ — ابن قتيبة : الشعر والشعراء — القاهرة — ١٣٦٩ هـ

٥ — ابن عبد ربه : العقد الفريد — طبعة احمد امين — ١٩٤٨

٦ — أطلس التاريخ الاسلامي — تأليف هاري. و. هازارد — ترجمة ابراهيم زكي خورشيد — القاهرة — بلا تاريخ

٧ — امين : الدكتور احمد

أ — ضحى الاسلام — ط ٥ — القاهرة ١٩٥٢

ب — ظهر الاسلام — ط ٣ — القاهرة ١٩٥٥

٨ — البستاني : بطرس

أدباء العرب — ط ٤ بيروت : ١٩٥١

٩ — بعيو : مصطفى عبدالله

أ — المجمل في تاريخ لوبيا — الاسكندرية ١٩٤٧

ب — دراسات في التاريخ اللوبي — الاسكندرية ١٩٥٣

١٠ — بيهم : محمد جميل

قوافل العروبة ومواكبها — بيروت : ١٩٤٨

١١ — ج. دي بور : — تاريخ الفلسفة في الاسلام — ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريدة — ط ٣ — القاهرة ١٩٥٤

١٢ — حسن : الدكتور حسن ابراهيم
تاريخ الاسلام السياسي : ط ٣ — القاهرة ١٩٥٣
١٣ — الحصري : ابو اسحاق ابراهيم
أ — زهر الآداب ط ٣ — القاهرة ١٩٥٣
ب— جمع الجواهر في الملح والنوادر
القاهرة — بلا تاريخ
١٤ — خفاجي : محمد عبد المنعم
قصص من التاريخ القاهرة — ١٩٥٤
١٥ — داغر : يوسف اسعد
مصادر الدراسة الادبية ج ١
صيدا : لبنان — ١٩٥٠
١٦ — الراجكوتي : ابو البركات عبد العزيز الميمني
١ — ابن رشيق القاهرة — ١٣٤٣ هـ
٢ — النتف القاهرة — ١٣٤٣ هـ
١٧ — زيدان : جرجي تاريخ آداب اللغة العربية
ط ٢ القاهرة ١٩٥٧
١٨ — ضيف : الدكتور شوقي
أ — الفن ومذاهبه في الشعر العربي ط ٣ بيروت ١٩٥٦
ب — الفن ومذاهبه في النثر العربي ط ٣ بيروت ١٩٥٦
١٩ — الفاخوري — حنا :
تاريخ الادب العربي حريصا — لبنان ١٩٥١
٢٠ — ف. بارتولد
تاريخ الحضارة الاسلامية ترجمة حمزة طاهر
ط ٢ القاهرة ١٩٥٢

٢١ – عبد الوهاب : حسن حسني
أ – بساط العقيق   تونس ١٣٣٠ هـ
ب – المنتخب المدرسي من الادب التونسي – ط ٢ القاهرة ١٩٤٤
ج – خلاصة تاريخ تونس   ط ٣ تونس ١٩٥٥
٢٢ – علي – محمد كرد   رسائل البلغاء ط ٤ القاهرة ١٩٥٤
٢٣ – غنيمة : محمد عبد الرحيم
تاريخ الجامعات الاسلامية   تطوان – ١٩٥٣
٢٤ – غوستاف لوبان : حضارة العرب
ترجمة عادل زعيتر ط ٢ القاهرة ١٩٤٨
٢٥ – كارل بروكلمان
تاريخ الشعوب الاسلامية
ترجمة الدكتور نبيه امين فارس ومنير البعلبكي
بيروت ١٩٤٩
٢٦ – كرو ابو القاسم محمد
أ – الشابي : حياته وشعره   ط ٢ بيروت ١٩٥٤
ب – العرب وابن خلدون
(سلسلة كتاب البعث رقم ١١) تونس ١٩٥٦
٢٧ – الكعاك : عثمان   البربر
(سلسلة كتاب البعث رقم ٥) تونس ١٩٥٦
٢٨ – ماكس فانتاجو   المعجزة العربية
ترجمة رمضان لاوند   بيروت ١٩٥٤
٢٩ – ياقوت : معجم الأدباء   القاهرة ١٩٣٦
٣٠ – الثريا : مجلة تونسية   دوريات ١٩٤٤ – ١٩٤٨
٣١ – المباحث : مجلة تونسية   « ١٩٤٤ – ١٩٤٨

الفهرس

القســم الثـانـى

شخصيــات ادبيــة

عصر القيروان / أبو القاسم محمد كرو . ـ ط ٢ . ـ دمشق : دار طلاس، ١٩٨٩ . ـ
٤١٢ ص، ٢٥ سم .

١ ـ ١١٢٣، ٩٥٦ ك ر و ع ٢ ـ العنوان ٣ ـ كرو

مكتبة الأسد

رقم الإيداع ١٦٩ / ٣ / ١٩٨٩

رقم الإصدار ٤١٩